أعواد البرتقال

□ أعواد البرتقال

المؤلف: جمال عبد الفتاح الهور

الطبعة الأولى : ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©

قياس القطع: ١٤x٢١

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨٩٩٥٧٦١٣٤٣٣ :ISBN

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٣٨١٨/ ٨/ ٢٠١٦

أروقة للدراسات والنشر

هاتف وفاكس: ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢)

ص.ب ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦الأردن

البريد الإلكتروني: info@arwiqa.net

الموقع الإلكتروني: www.arwiqa.net

الدراسات المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصة شرعاً وقانوناً وطبقاً لقرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإن حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونةٌ شرعاً، ولأصحابها حق التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing from the publisher.

أعواد البرتقال

جمال عبد الفتاح الهور

أروقة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء
إلى
شهداء
فلسطين

تقديم

عندما تكتب عن الشهداء فإنك تكتب عن رفقاء الأنبياء في الجنة، فعليك أن تسمو بقلبك فتكتب بمداد من دم ليضيء الظلام للقارئين كما يضيء دم الشهداء الأرض بنور الحقيقة.

جمال عبد الفتاح الهور

«أبو تقي الدين»

تقريظ

جمال قصة جمال ولادتها من رحم الحقيقة وتحمل في طيّاتها صمود شعب.

الأستاذ معاذ بلال

إن تضحيات هذه الدعوة المفترى عليها تحتّم على المخلصين الأوفياء تسطيرها بمداد الذهب وإن هذه الكلمات المعطرة بعبق الشهادة وليدة قلب مخلص.

الأستاذ إبراهيم غنيمات

إنها فلسفة الشهادة، الغيب لا يدركه إلا من شرح الله قلبه

للإيمان.

تجتمع مع فلسفة المقاومة، الواقع الذي لا يفهمه إلا كل قلب حرّ.

تختلط بفلسفة الحب، الوفاء، الشوق، الحنين، الانتماء صيغت في ألفاظ بديعة ومعان راقية وحوار سام... ليفهم من كان له قلب.

الأستاذ:

محمود حماد شريتح

أعواد البرتقال

تداعب مياه البحر بقدميها العاريتين وتعبث بيديها البريئتين في حبات رماله، ترى أمواجه كأنها الجبال بعضها فوق بعض، وما أن تقترب من الشاطئ حتى تصير سهلاً ممتداً مختفياً في أعماق الرمال تحت قدميها، يغازل عينيها بريق المياه الذي يلمع كلما لامست صفحته الزرقاء سهام الشمس.

تراقب عن كثب خديعة بحر جباليا وهو يستدرج شمس النهار بتمايل أمواجه فيستميلها حتى تصبح قاب قوسين أو أدنى منه فيبدأ ينهشها من أطرافها ثم يبتلعها وهي تذرف حمرتها لتكون شفقاً أسفل السماء كأنه يلد من رحم جريمة مازالت تتكرر منذ الأزل.

فاطمة الصغيرة ترقب بعينيها هذا الليل الذي يتقدم بعتمته العابثة ليمحو آثار هاتيك الجريمة، وليخفي الظالم خلف قناعه كما تغيب الحقائق في متاهات الأيام.

يحملها جدها على متن قاربه الصغير الذي تناقلته الأمواج فيتأرجح كوهج عروس يرقص على ظهر جمل ضلّ بعروسه في صحراء المجهول... يمرر يده على جداول شعرها المتعرجة ويقص عليها حكايته مع الماضي القريب والبعيد المملوء بمغامراته التي خاضها على جبهة بحر يافا يطارد فيها حيتانه ملقياً شباكه لتتلقف الأسماك صغيرها وكبيرها تكسوها ألوان تبهر الأبصار تجلّت فيها قدرة الإله.

يتابع الجد العجوز النقش على جدار ذاكرة حفيدته الصغيرة بلون تلك الشواطئ المنسية من ذاكرة الزمن ولكنها ظلت ساكنة في أعماقه، وراح يغرس في وجدانها صورة البيوت الطينية الصغيرة المتناثرة على ضفاف بحر فلسطين الأسيرة ويغذي روحها بشذى البرتقال اليافيّ وروعة ليمونها، وكلما مرّ بها على حكاية من حكاياته المحشوة بالألغاز والأسرار تأوَّه بصوت خنقه نحيب الشيخوخة وأناخ وجهه من أمام عيونها التي كادت تحرقه بعواصفها الجامحة فيخفي شوقه وحنينه لمهد طفولته ومنبت عوده، وهي تمتص من بين شفاهه المتشققة ماضيه بأرض جفاها الغيث أعواماً مديدة.

رغم أنها ما زالت برعماً يافعاً إلا أنها أدركت أن هذا العجوز يلقي على كاهله حملاً ثقيلاً تنوء به الشمم الرواسي وتطحن تحت أعبائه العمالقة من الرجال لكنها كانت تتلقى الحكايات من فيه فتتغذى بها روحها لتكبر معها وعليها تشيب كلما مدّ لها الزمان في العمر وبسط، وقبل أن يصل بهم القارب حيث اختفت الشمس في بطن البحر، أدار العجوز قاربه بحركة فنية اختفت لسرعتها حركة المجاذيف كأنه يفرغ زفرة بركان كادت تقتله، عاد بها مع رحيل النهار إلى عشها في ذلك البيت المتربع وسط مدينة جباليا، تلك المدينة الفلسطينية المتمردة على بحر قهر الأزمنة والدهور واستعصى على أعاصير الأيام، لا تخرسه جلبة الطغاة ولا قرقعة الغزاة، فكلما حلّوا رحلوا وما بقي من آثارهم خلا حروف من حصى صغيرة مبعثرة إن نظمتها قرأت: «من هنا مروا».

كان بحر جباليا قوياً بأمواجه ورغم عواصف الشتاء القارس ما استطاعت تجميد المياه فيه، كان عصياً على كل القراصنة الذين أرادوه أسيراً فصاروا هم في أعماقه طعاماً مستساغاً للحيتان والأسماك، كانت جباليا ببيوتها الطوبية الصغيرة والممتدة على طول ساحله شمالاً وجنوباً تتحدى طوفانه، فقد تشبثت تلك البيوت بجذور الأجداد فباتت تنغرس في أعماق الأرض البعيد فما عادت ترعبها

أمواجه ولا هديرها ولا تخيفها عتمة الليل ولو حمل تحت عباءته مداً وراء مد.

هناك بين كثبان الرمل كان المخاض المؤلم لبذرة مباركة نمت وترعرعت حتى تراءت للناظرين رغماً عن أنوف الغزاة الذين كانوا يلتهمون الأخضر واليابس ويقتلعون عن ظاهر الأرض غرس الآباء والأجداد، ظناً منهم أنهم قادرون على تغيير الخريطة ونسف التاريخ.

كانت يافا وحيفا والمجدل تعيش أولى أيام نكبة عام ١٩٤٨ والآهات والأوجاع تغطي فضاءها وكانت أحضان جباليا تستقبل مولودها الجديد الذي زرع الأمل في عيون سكانها الرعب وعشعش في جنباتها الخوف وهجرها الأمن والأمل.

ولدت فاطمة تصرخ بصمت، فعويلها لم يسمعه أحد، فقد كانت الدنيا بأسرها تصرخ وتتوجع من آلام النكبة التي حلت بفلسطين وشعبها وغربان حلّت تنعق خراباً في ديارها... آثرت الرضيعة الصمت في مهدها الممزق وكأنها رضيت به رفيقاً قسريّاً من المهد إلى اللحد.

مرت الأيام بسرعة فاستوت فاطمة واستقام عودها، كبرت

صامتة لكن جوفها هادر كأعماق البحر فمن أثداء أمواجه رضعت صفاءً يشبه لمع البرق وقوة كأنها طوفان يتوقد وازدادت مع السنين كبرياء وعزة ترتشفها من شموخ جباليا وغزة العزة.

فجر جديد يرسل نسائمه محملة بشذى البرتقال ليلاطف أنفاسها ويدغدغ خلايا روحها فيعيدها للحياة بعد موت قصير لم يطل، فتتقلب في فراشها قليلاً ثم تنطلق لتمرح في أحضان بيارات البرتقال المتباهية بخضرتها وعبقها وتتحسس الحياة في عروقها وتهمس في شرايين أوراقها الناعمة وتقطع معها عهداً وميثاقاً أن تبقى وفية مخلصة لتلك الأغصان التي نسجت حكايتها سنارة ذلك العجوز جدها.

وتمضي سفينة الأيام تتقدم بفاطمة لتكون ربانها في زمن عزّ فيه وجود الربان، فبعد أن أكرمها الله عز وجل بحفظ كتابه العظيم غدت مربية للأجيال تصرف أوقاتها متنقلة بين بيوت الله، ومن دائرة وعظ وإرشاد إلى أخرى، تقود الحركة النسائية الإسلامية في مدن غزة ومخيّماتها، تشحذ الهمم وتغذي روح الشهادة والاستشهاد في نفوس الأمهات والزوجات وترتل قصصاً بطولية من قصص السلف أمثال الخنساء ونسيبة وأسماء والزهراء.

وكلما انضمت سنة إلى أختها كانت علاقة فاطمة وأشجار البرتقال تتعاظم حرارة ودفئاً حتى صار يؤرقها ويؤذيها وهي تشاهد هذه الأشجار ينهشها الموت من أطرافها فتتساقط أوراقها فتصير أعواداً جرداء بعدما كانت روحاً مكسوة بنبض الحياة، حرك هذا المشهد بداخلها عاصفة الأفكار فتزاحمت ثم انفجرت عاصفة تهز الوجود فراحت تجمع رزمة من الأغصان.

فنقلتها فأودعتها إحدى زوايا البيت، لا تسمح لأحد أن يمسها بسوء وكانت تهمي إليها كل حين، فتخاطبها بلسان الواثق من أنها تسمع وتستجيب قائلة: «ستكونين رفيقتي في هذه الحياة حتى نصل آخر الطريق؛ واحذري أن تفضحي سرنا ولو غافلوني وألقوا بك في جحيم شهوتهم والتفوا من حولك يلتمسون الدفء على أنغام الآفات والآهات».

كان الكل يرقب فعلها، الأب والأم والإخوة والأخوات، والحيرة تعلو وجوههم ويستغربون فعلها، كلهم تملكتهم الحيرة إلا جدها كان يراقبها ويهز رأسه متفهماً صنيعها ولا يرى أن جنوناً أصابها بل كانت حركة رأسه تنقل إليها رضاه وكأنه قد اطمأن إلى شيء كان قد فقده في زمن الصبا... كلهم يهمزونها ويلمزونها

بألسنة وشيء من الجنون إلا ذلك العجوز كان يدفع عنها بقوس حاجبيه ويعترض كل همساتهم بحركة رأسه يميناً ويساراً، وجاء الشتاء ببرده القارس مسرعاً كأنما كان على موعد أو لعله يمتحن المواقف وارتعدت الأجسام واصطكت الأسنان، فكلما همّ أحدهم أن ينتزع من رزمتها عوداً ليجعله وقوداً لنار المدفأة كانت تنقض عليه مزمجرة حتى يرتد ناكصاً مؤثراً الاكتواء ببرد الشتاء على أن تقتله حرقاً بنظراتها فيرقص العجوز من تحت جلاّبيته وحطّته مسروراً.

ويتعاقب الليل والنهار، وتمر الأيام يلف بعضها بعضاً، وتزف فاطمة عروساً إلى بيت زوجها، تحمل بين أثاثها رزمة أعواد يابسة تترك استغراباً وسؤالاً في عيون الجموع، وهي تجيب بصمتها المعهود... سينبئكم الغد بما كنتم تجهلون، تتهادى داخل هودجها على ظهر جمل عشق سكونها فراح يتهادى طرباً ورغباً... وهي تسترق النظر من خلف الستائر فترى وتسمع الهمز واللمز فلا تبالي حتى تحط رحالها في عشها الجديد وتشاركها أعوادها إحدى جنبات البيت والزوج المسكين يستسلم لهذا القدر دون أن يقرأ سرّها أو يدري خبرها.

لكنها تملك فلسفتها الخاصة في هذه الحياة، امرأة شابة تحتفظ بحفنة من عيدان الليمون والبرتقال اليابسة الجرداء، تهدهد عليها كما تهدهد وتربّت الأم على صغارها، تتحسَّسها براحتها اليافعة بهدوء وسكينة كأنها تشفق عليها من قسوة الحياة أو لعلها تعيد إليها نبض الحياة ولعله العكس الذي نجهله، قد تكون هي نفسها تستمد من صلابة أعوادها وقسوتها وصمودها سر الاستمرار والمضي في هذه الحياة المليئة بالصدمات والمفاجآت.

من يدري؟! سؤال ينتاب كل من رآها ولو مرة واحدة، وهي تحيط تلك الأعواد بحنانها ولطفها وتسيِّجها بالأمان، الكل يراه الجنون نفسه أو مسًّا من الشيطان، لكلّ ما في هذا الوجود حكاية وطريقة يحياها وهو يعبر ممر هذه الدنيا نحو مصيره الأخير فمنهم من خرج عادياً يتعبد الإله في مغارة في سفح الجبل، جبل بعيد عن كل البشر، وغيره من قرر ألا يمسه الماء سنين وسنين. ومنهم من ضرب رأسه بسلاسل الحديد حتى أدمي أو مات، وهناك من سجد لبقرة أو فأرة... وهناك وهناك، تسمع وتقرأ كثيراً في هذا الوجود المتقلب، ولعل صاحبتنا أرادت أن تضيف جديداً في مضمار الحياة ولكن من زاوية أخرى تختلف كل الاختلاف عن انحراف

الفكر وتحريف الديانات وهؤلاء يقولون: نحن شهدنا وعرفنا الكثيرين ممن تربطهم صداقة مع حيوان من الحيوانات أو طير من الطيور لدرجة تفوق درجة الرأفة والحنان وقد تصل حد العشق لكن الكل هنا يتفهم هؤلاء فهم يرأفون ويحنون على شيء تدب فيه الحياة والروح تسري فيه وقد يمسهم شيء من الوفاء واللهو والمرح، أما تلك العيدان التي يبست وخلعت خضرتها منذ زمن فلا منظر تسر به العين ولا نمو ينذر بوجود الحياة، وهذا ما يدفعهم للحيرة ولا يقودهم إلا للمجهول.

كانت الأقدار كريمة معها، ففي كل سنة حملت حملاً خفيفاً وضعت مولوداً جديداً أرضعته ماضي الآباء والأجداد، ورسمت بين حاجبيه لوحة البحر الأسير ورشّت بين ثنايا ثيابه عبير البرتقال وعبق الليمون... فكانوا يكبرون على مائدة الماضي المفقودة والتي سيأتي اليوم الذي ينتزعونها فيه من بين أثواب اللئام مهما طال الزمان أو قصر.

شعب بأكمله مطارد مشرد، والأيام قاسية لا ترحم، والسُّرَّاق وشذَّاذ الآفاق يتربصون بأهله لكسر الإرادة والعنفوان وسلبهم حق الحياة.. وهذا الشعب ينتقل من محطة مؤلمة إلى أخرى موجعة

وأكثر إيلاماً، ومن جحيم إلى جحيم، لكنه حتماً سينتصر عل كل الغزاة عندما يقرر ذلك بحق ما تمنطقت «ريم رياشي» بحزامها وكما «دارين أبو عيشة» و«وفاء إدريس» وكوكبة كبيرة من زهرات فلسطين اللواتي أبين الخنوع والركوع أمام آلة القتل وصلف المحتل... لوحات من التضحية والبطولة والفداء ترسمها تلك الخنساوات على جبين الزمن ليلتقي الحاضر بالماضي السحيق، ولتبقى منقوشة في ذاكرة الأيام وحكايات تخلد في القلوب العامرة بالإيمان ولا سيما قلب فاطمة التي انتفضت عندما سمعت دوي انفجار وطالعتها الأخبار بأن شهيدة خرجت من أحضان غزة تجاه مملكة الغربان على بوابة معبر إيرز الذي يحاصر غزة من شمالها.

أسرعت فاطمة فور تحققها من النبأ إلى مرآتها تقلب صفحة وجهها وقد مررت أصابعها على الخطوط المتعرجة والملتفة في ثناياه، فسمعت هسيس الصمت يناديها.

يا فاطمة لقد سبقتك رياشي إلى الجنة ومن قبلها وفاء وغيرها وغيرها وستموتين على الفراش كما ولدت عليه منذ سبعة عقود...تنقض وتهتز وتخطو خطوة إلى الوراء ثم تقف: لا... لا لن أموت كما يموت البعير في مربضه... نعم سأصنع لنفسي مِيْتةً

ألقى بها ربي ليرضى وأفاخر بها سمية العدوية وخنساء العرب والمسلمين. نعم أنا قادرة على فعل هذا فمجبنة الدنيا والولد ما عادت تعشعش بين أضلعي... وتستمر تهمس مع نفسها...

لكن يا فاطمة كيف السبيل إلى ذلك؟!

وكيف حصلت ريم على تذكرة الشهادة؟! ومن ساعدها في صنع مركبة العبور والهجرة نحو السماء؟!

أسئلة تقتحمها من كل جانب والجواب الوحيد لها...

يا فاطمة من جد وجد ومن صدق الله صدقه الله، وما يدريك لعله الله جعل لك زمناً لا بد منه وأنه آت... فتبتهل رافعة يديها إلى السماء تناجي ربها.

يا الله لا تحرمني الشهادة في سبيلك، تشفي بها صدور المؤمنين تغيظ أعداءك وأعداء دينك وعبادك... اللهم آمين!

ويستمر الصراع مريراً بين الباطل المعربد بآلاته ودباباته وطائراته وبين الحق الـذي لا يجد له مـؤازراً إلا الله جل في علاه وفاطمة تتذوق هذا الصراع علقماً وهي ترى كل مدن غزة ومخيّماتها تغطي سماءها الطائرات وتجوب بحرها السفن الحربية

والطرادات، والمدافع تعربد في كل شارع وطريق وعندما طافت تعبر الأزقة والحارات بعد كل غارة جوية أو اجتياح بري لجباليا والمدن المجاورة كانت ترعبها تلك المناظر البشعة التي تدلل على وحشية اليهود وحقدهم الأسود الذي لا حدود له على كل ما هو غير يهودي في هذا الوجود، فقطع الأشلاء المتناثرة والدماء المجبولة بالرمال وألعاب الأطفال وثيابهم الممزقة تراها بلون واحد متدلية على جذوع الأشجار، أو ملتصقة بالبنايات والأرصفة... إنه الموت يعبر من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع من شوارع فلسطين يسكن في كل حي من أحيائها، رائحته تنتشر في الآفاق تزكم الأنوف وتحجب الأبصار، كانت ترعبها تلك المشاهد لكنها ما انكسرت وما ضعفت بل ازدادت إصراراً على الحياة وتحدياً لكل ما هو آت فهي العامرة بالإيمان وما رددت إلا قوله عز وجل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٦]، وفي مثل هذه الأوقات كانت فاطمة لا تطيل التجوال بل تعود إلى حجرتها محملة بالآهات، فتأوي إلى عيدانها تتلمسها وتستنشق

منها سر الحياة تطرد بعبيرها الذي ما خففته صروف الأيام رائحة الموت التي عشعشت في ثناياها فتهدأ عاصفتها رويداً رويداً... فما هذا السحر الذي تملكه تلك الأعواد الجرداء؟ لعلها تحمل حكمة العجوز جدها الذي ودعها منذ زمن، أم أنها تجد فيها رائحة الماضي وأسرار حكايته التي ولدت وكبرت على رنينها.

هدأت عاصفتها ثم أسندت جسدها المنهك على فراشها مستسلمة بين يدي ربها ليدبر لها راجية أن لا يطول انتظارها، ففجر جباليا راح يتغير لونه فقد اقترب من حمرة بحر يافا والمجدل، ترجو الله أن تكون آخر قارورة دم تهراق في سبيل الله من أجل بلدها.

رضيت فاطمة بقدرها ووكلت الأمر إلى ربها لكنها قررت أن تكون نصيرة الضعفاء ومأوى المطاردين من أبناء القسام وغيرهم، وراحت إلى جانب هذا الفعل العظيم تشارك فعاليات شعبية أغلبها كانت بمثابة وخزات تقض مضاجع الغاصبين من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تخمد قليلاً من غليان الإعصار المتأجج في صدرها ولو إلى حين... ومما آنسها أن أوى إلى ركنها مهندس الاستشهاديين الشهيد القسامي البطل يحيى عياش، وقائد المجاهدين محمد

ضيف، وقافلة عريضة من الشهداء مرت من تحت راحتها ترتقي على صهوة جياد بيض تلفهم شراشف بيض، تطوف من حولهم حمائم بيض يفترشون أسرّة متناثرة في فناء الزمان المنكسر.

مشاهد تتكرر أمام ناظرها لم تفارقها منذ يومها الأول في هذا الوجود ومعالمها تتضح أكثر فأكثر كلما اجتمع من حولها النسوة ورددن قصص الخراب والدمار التي حلت بكل مدينة وقرية في هذا الوطن الأسير.

والأيام تنقلها من عقد إلى عقد وتعبر بها سفينة الحياة مسرعة دون الالتفات إلى الوراء فتجاعيد رسمت وأخاديد حفرت في صفحة وجهها وتقلص طولها الممشوق فانحنى ظهرها وشاطئ العمر اقترب، لكن صبرها أقوى من تصاريف الزمان وريبه فالنهاية لم تتجلَّ بعد، لعل المسير ما زال طويلاً.

لكنها بصيرة المؤمنة الواثقة النهاية أقرب ممّا مضى، فلربما تكون هذه النهاية مخبأة بين زوايا جباليا أو بيت حانون التي بكت أطلالها في يوم الخميس ٢٠٠٦/١١/٢٠ عندما دكت بأطنان الموت والقتل، فما أمن الرضيع في مهده، ولا الشيخ على عكازته، هناك ثلة مؤمنة تحاصرهم دبابات الإجرام الصهيوني في

أحد مساجد بيت حانون... فيأتيها النبأ فتنتفض انتفاضة المعتصم فتقـول: «أنا لها» تنـزل إلى الحي تستصرخ النساء فيجتمعن في موكب مهيب وكأنه سحابة خير مثقلة بتباشير النصر، جاءت تشق فضاء غزة هاشم، تحطم حواجز الخوف التي زرعها القتل والموت في الصدور، وتدوس تحت وقع أقدامها كبرياء الغزاة وغرورهم، كانت وجوه النساء تتهلل بالنور والثقة، يتقدمن بخُطاً ثابتة، تتحدى آلة القتل والغدر التي لا ترحم وتطارد كل ما يدب على أرض غزة حتى النساء في خدورهن، هببن كعاصفة تمردت على صيف حارق جاءت تمحو رائحة الموت وتقتلع ضده الغزاة الذين تمترسوا خلف حصونهم الحديدية والفولاذية، لكن صيحات التكبير المنطلقة من أعماق الحناجر النسوية كانت تهز العداة من بين أيديهم ومن خلفهم؛ فتمزق طوق الحصار بسهام التكبير وكأنه خيوط العنكبوت، واستقرت القلوب التي بلغت الحناجر وانفرجت الأسارير وابتسمت الأرواح العائدة من بطن الموت، فك الحصار وانطلق المجاهدون والنسوة تظلّهم كما تظلّ الطيور صغارها خشية مخالب الغربان الجارحة، كان النصر حليف الإرادة في معركة سمّوها فيما بعد «معركة أهل الجنة».

هذه المعركة منحت فاطمة قوة جديدة، وأحست من خلالها بحلاوة النصر، وساقها الفرح نحو بيتها وهي تسترجع مسار المعركة، وتستحضرها فأطلقت ابتسامة سمعها كل قلب حاقد على المحتلّ.

تدخل بيتها مسرعة لتقف أمام أعوادها تخاطبها وتربّت عليها كعادتها كما تفعل مع أبنائها وأحفادها، ويقتحم عليها الصغار مهدها معلنين فرحتهم وفخرهم بصنيعها، فقد شاهدوا شاشات التلفزة تبث أحداث معركة الحصار وفاطمة في المقدمة شامخة متحدية الخوف والموت.

إذن هي بطلة معركة بيت حانون، كيف لا وهي التي أنقذت الأبطال من فوهة الموت، لقد استحقت الإجلال والإطراء وكان حقاً على كل حر أن يحني لها رأسه...، لقد شاركت صغارها فرحتهم على استحياء، فما أرادت أن يكشف أمرها ولطالما أحبت أن تظل الجندي المجهول الذي يتقدم في الوقت المناسب وفي المكان المناسب ولطالما أحبت أن تبقى الجندي الرباني الذي يظهر مقنعاً في ساحات الوغى يمتطي جواد خولة بنت الأزور ويتلفح بلباس الخنساء الصابرة المحتسبة.

بحنكة وذكاء تعتذر من الصغار لتنفرد بعشها وحيدة تقلب سفر الأيام وتبحث بين دفتيه عن صفحة أمان أو ربما أي مشهد جميل يداعب قلبها الحزين، وهل تجد ما ترنو إليه في زمان لا ينبعث منه إلا رائحة الموت والتشريد والدمار، ففي كل محطة تحاول الوقوف عندها لا ترى سوى بقايا الأشلاء التي علقت على جدران الأيام وبقايا أحذية وملابس لأطفال صغار شربت دماً حتى الثمالة، ومن حولها جماجم مصفوفة تنتظر الموكب الذي يحملها في رحلة أبدية حيث عالم المغيب البعيد.

تزدرد ريقها ولا يسمع إلا هسيس صمتها يتساءل:

هل سيكون هذا المصير بعد هذا العمر الطويل؟!

هل تقبلين يا فاطمة أن تكوني لقمة سائغة تتناوشها بنادق اللئام دون تنغيص؟!

هل تكونين صيداً لقناص الموت الذي ما يلبث أن يغيب حتى يعود ومن جديد متمترساً خلف عتاد جبروته ليسرق الأرواح البريئة من أعشاشها ويشرب الأقداح من نوافذ الجماجم فيطفئ لهيب شهوته.

لا... لا قدر الله يا فاطمة.

لا تكون نهايتي نهاية الآخرين لن أستسلم لمثل هذا الواقع دون مقاومة، وأنا التي هاجرت على أكتاف جدها في رحلة الماضي نحو الحاضر والمستقبل فوقف بي على أطلال بلاده المسلوبة، وأنا التي رضعت آهات المهجرين وغفت عيوني على صرخاتهم، وتلك الأغصان اليابسة المستورة في الداخل ما زالت تنقل إليَّ أنين بيارات يافا وحيفا والمجدل، وتلك مياه بحر غزة التي تأتيني بنبض بحر يافا وهديره سيرى خلسة من تحت أساطيل المحتل الرابضة على صفحة البحر تكتم أنفاسه وتخمد ثورة أمواجه ولا تغيب عن بصري تلك الأسلاك التي تمنع وتعيق من أن يحلق طليقاً فوق مرابع الأجداد والآباء.

لن أسمح بامتهان كرامتي وكرامة شعبي أو أن تداس تحت نعال البغاة فنحن لسنا ممن استرؤوا الذل حتى اتخذوه شعاراً في زمن الخنوع وصورة «ريم رياشي» ما زالت تذكرني كيف تنتزع الحقوق وكيف تصنع الأكفان بكرامة بعدما تذيق الغاصب مرّ الحنظل وتجرعه كؤوس العلقم، فلطالما تجرعها شعبنا.

وقفت فاطمة طويلاً أمام هذا المعرض الفني الكبير الذي يعرض على واجهته لوحات البطولة والفداء وأدركت أنه وإن كان

لابد من الموت فمن العار أن تموت جباناً فانهضي وابحثي لنفسك عن كفن في إحدى أزقة الوطن الممتدة طولاً وعرضاً.

وبينما هي على هذه الحال يبرز إليها شيطان الجبن فينبري صارخاً يا فاطمة! ما هذا الجنون الذي تفكرين فيه وتبحثين عنه؟ إنك تهذين فقد تملكك العقم الذهني، الذي يرد العجائز إلى أرذل العمر، أمثالك ومن بلغ هذا الكم من السنين يتحدث عن الموت؟!

لماذا؟! لماذا تختارين وتبحثين عن فلسفة بعيدة عن المنطق وواقع الناس، فمن يبلغ التسعين من عمره يتمسك بالحياة ويعض عليها بالنواجذ بل بأنيابه البالية إن وجدت وأصابعه اليابسة المتجعدة، اصبري ومتعي قلبك بالحياة فالموت يقترب منك وإن تفرّي منه.

بدأت تدفع شيطانها بلسان الحق الذي حركته جعجعة هذا المتخاذل فراح يحاججه ويدحض منطقه الدنيوي فقال:

يا شيطان الدنيا والجبن، تدعوها لتتمسك بالحياة، أما سمعت بمن قالوا: احرص على الموت توهب لك الحياة؟!

ومثلك ما يدريه ما جوهر السعادة التي تكمن في منطقنا؟!

إنه فن الحياة نرسمها بريشة الإرادة والشهادة، فما أجمل أن

يموت الإنسان كيفما يريد هو لا كما يحلو لعامل المقصلة من أي جهة جاءه أو على أي جنب قطف رأسه ودق عنقه!

ينبري شيطان الجبن قائلاً:

لكنها أيام قلائل وترحل عن هذه الحياة، فلتقضها بين أحبتها وأهلها وما أرى منطقك إلا سيفاً تقطف به الأعناق قبل نضوجها ولكم دفعت بالصغار والكبار إلى أتونك دون أن تراجع حساباتك أو تتهم نفسك لو مرة واحدة.

يرد لسان الحق بهدوء:

اسمع يا شيطان الجبن نحن نحيي في النفوس الأمل ونجدد فيها الحياة عندما ندفعها لرفض الذل ومحاربة الطغاة ولها الحق الكامل كي تترك بصمتها على رقعة من رقاع الزمن بمداد دمها الطاهر الذي سيبقى يلعن الطغاة الغزاة كما يلعن حكام الذل وكل المتخاذلين في الانحدار والتردي.

تسمع هذا الجدل وتدرك أن الخلاص هو القول الفصل، فتخرس شيطان الجبن وتوجه إليه تقريعاً وتشنيعاً على منطقه الذي يخلو من الكرامة والشهامة والمروءة ويقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا

كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، فنادت وعيونها شاخصة للسماء تخاطب ربها معلنة حبها وشوقها للقائه... نادت قائلة:

والله ما تاقت نفسي لهذا اللقاء مثل ما تاقت إليه اليوم، أشعر أنها تدافعني لتفلت من بين أضلعي فتولي هرولة نحو السماء وحالها يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

نعم لن يثنيني عما عزمت شيء في هذا الوجود بعد اليوم فمناطق الأثير مرتبطة بخالقها وحبّه اقتحم أسوار النفس وحطم مستعمرات الجبن وحصونه.

إذن لم المماطلة؟! ولماذا لا أتوجه لولدي صابر فهو ناشط وعلاقته قوية مع كتائب القسام وقد يكون بوابتي إلى الجنة.

حسم الأمر بعد جدل قصير متوكلة على الله، توجهت إلى صابر والإصرار يسبقها.

ـ ولدي صابر... أريدك في أمر ضروري غير قابل للنقاش.

ـ أنا بين يديك أماه، إن كان بملكي فلن تجدي أجود مني، وإن كان الأمر صعباً ذللته تحت قدميك... وإن كان مستحيلاً بذلت نفسي وروحي لأجلك أماه.

ـ يا ولدي لا تغرب ولا تشرق فما أريده ليس من أمر الدنيا ومادياتها.

ـ ها... صمت قليلاً وكأنما غشيته سكرة، ثم تنهد متلعثما فماذا تقصدين يا أمي؟!

ـ ولدي... باختصار شديد أريد تلقين الأوغاد درساً وأذيقهم شيئاً من حمم الموت.

ـ من تقصدين؟!

ـ لا تتغافل يا ولدي فأنت تعرفهم معرفة المرء لنفسه، هؤلاء الذين يغتصبون بلادنا ويقتلون ويأسرون ويشردون ويدمرون على مرأى العالم ومسمعه دون رادع ولا مانع.. إنهم اليهود.

ـ إذن الشهادة تعنين! أنا جاهز يا أمي، إن هي إلا سويعات حتى يأتيك خبري وقد نلت منهم وأشفيت صدرك وقلوب المؤمنين.

ـ بارك الله فيك يا صابر على هذه التضحية، لكن يا ولدي أنا اليوم أريدها لنفسي فو الله إنني أبحث عنها منذ اليوم الذي ولدت فيه وما كففت لحظة واحدة عن التفكير في اللحظة التي تكون الفاصلة بين الدنيا والآخرة.

ـ لكن يا أمي أنت تعلمين أن البلد مليئة بالرجال، وكلهم مستعدون للشهادة لولا هذا الحصار والمنع الذي يحول بينهم وبين عدوهم والحقيقة أنا لا أستطيع أن ألبي لك هذا الطلب فاطلبي كل شيء حتى روحي سأقدمها على بساط الطاعة لله والبر بالوالدين أما أن أقودك أنا إلى هذا المصير بيدي فهذا المستحيل عينه.

ـ أنا لا أحب الخلط واللغو في الكلام، اسمع... لالا... لا عليك فحاجتي ليست عندك... السلام عليكم.

ـ أمي.. أمي... أمي... أمي.

دخلت غرفتها متجاهلة صوته المرجف والدموع تزاحمها، ونحيبها يخترق جدار الصمت مردداً... لن آيس... لن آيس.. سأطرق كل الأبواب، سأبحث عن الشهادة في كل الدروب، سألاحقها ولو كانت في سابع أرض، حتى في سابع سماء سأطير إليها بتذكرة «من طلب الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء».

ألقت رأسها المثقل بالأفكار على وسادتها فغشيتها سنة من النوم، فما أفاقت حتى شعرت بإيحاء يأمرها بالذهاب إلى موقع قيادة جهاز الكتائب في جباليا: اذهبي دون علم أبنائك فقد تجدين منشودك

عندهم، ارتسمت بسمة وادعة على شفاهها وتهلل وجهها مشرقاً كأنه الشمس.

ألقت ملاءتها على رأسها وراحت تطوي الأرض طيّاً تحت قدميها حتى طرقت عليهم الباب ملقية تحية الجهاد والاستشهاد دون تردد، السلام على الرجال الشهداء.

رحبوا بها بصوت واحد:

ـ أهلاً وسهلاً بأم الشهداء، تفضلي يا أم محمد، اجلسي.

ـ كانوا مثل أبنائها ومعظمهم قد تربَّى على يديها وصعد إلى هذه المنازل من تحت قدميها وأقوالها وأفعالها.

ـ تفضلي اجلسي أمّنا الفاضلة.

ـ لا لن أجلس حتى تعطوني عهد الله وميثاقه على تلبية طلبي إلا أن يحاط بكم.

نظر بعضهم إلى بعض!

ـ وهل يوجد هنا من يرفض لك طلباً فأنت تأمرين.

ـ عاهدوني أولاً.

ـ نعاهدك على هذا والله على ما نقول شهيد.

ـ وكفى بالله شهيداً.

ـ إذن اسمعوا مني كلمتين لا ثالثة لهما.

ـ تفضلي أم محمد.

ـ أريد الشهادة اليوم قبل غد.

خيّم الصمت على المكان، وطأطأ الجميع رؤوسهم وكأنما عليها الطير والتحفت الأكف الوجوه لتختفي العبرات وتعترض سبيل الدموع فالكل في عجب من قولها.

لكن أحداً لم يفاجأ، خنساوات فلسطين حرائر كشهدائها وهي أم الحرائر.. فوقفوا أمامها إجلالاً وتوقيراً.

تقدم القائد فأجلسها وجلس قريباً منها قائلاً:

ـ وكيف سيكون هذا؟ وأنت تدركين صعوبة الموقف وما من أحد يستطيع الوصول إلى أي موقع من مواقع العدو.

ربَّتت بيدها الطاهرة على كتفه وقالت يا ولدي استمع:

لغة العدو من الرصاص حروفها فليقرؤوا منها الغداة فصولاً

لما أبوا أن يفهموا إلا بها رحنا نرتلها لهم ترتيلاً

تبسم الجميع ثم راحت ترسم خطة الشهادة والكل منصت واجم.

ـ تعلمون أن الموقع الذي يتحصّن فيه اليهود يكون أحد المباني التي تملكها قريبة لي، جيد، وبعد.

ـ أتمنطق بحزامي المتفجر وأجعل بيدي طعاماً وقديداً ومن ثم أتوجه إلى هناك، حتماً وبعد الطرق سينفتح الباب ويحيط بي الجيش فأفجر هذا الجسد والله الموفق.

كانت الفكرة بسيطة جداً وكانت الجرأة التي تمتَّعت بها هي التي فاجأت الجميع، ففي ظل حظر التجوال والحصار والحركة مشلولة تماماً يكون الحظر أعظم بآلاف المرات من أي وقت آخر، لكن الإصرار والبريق الذي ينبعث من عيونها طمأنهم على نجاح العملية فكبر الجميع وبدؤوا يعدون العدة بعدما اتفقوا على أن يكون الغد وقبل مغيب يوم الخميس ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٦ هو موعدنا مع العدو في عملية جهادية بطولية أطلق عليها «عملية صيد الأفاعي».

رجعت الحاجة فاطمة إلى بيتها ودموع الفرح تُبلِّل وجنتيها ولولا أن يفتضح أمرها لصرخت صرخة لامس صداها السماء «إني قادمة».

أغلقت باب غرفتها وخرّت ساجدة شاكرة لربها الذي سيكرمها ويشرفها بالوسام الرباني وسيقلدها مفاتيح الجنة من أي أبوابها شاءت دخلت، وقبل أن تلقي بنفسها على مصيرها، أمسكت قلم الأمل لتنسج به وصيتها وتحوكها بدقة متناهية وبحذر شديد حتى لا يسمع صرير قلمها مسترق من خلف الباب، أو طارق يدخل دون استئذان وتمضي عقارب الساعة في رحلتها وهي تخط حروفاً بلَّلتها دموع الفرح وتحمد ربها إذ أنهت وصيتها دون أن يطرق بابها أو تقتحم غرفتها.

طوتها بأصابع واثقة وروح مطمئنة هادئة، ثم بحثت بعيونها في زوايا حجرتها عن إحدى الشقوق الآمنة ووضعت فيه أمانتها وهي تتلو قول الله عز وجل ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

تحتضن وسادتها وجفونها تدفع طوفان النعاس الذي فاض عليها وراح يحرفها نحو النوم الأخير، وبين الفينة والأخرى كانت تسمع زخات من الرصاص ودفعات من قذائف المدفعية التي كانت ترجّ أركان البيت وتنزل على أحياء غزة كأنها شواظ وشرر كالقصر وحالها يقول: اصنعوا ما شئتم فإن غداً لناظره قريب، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ورغم العتمة التي أظلّت فضاء غزة إلا أنها كانت ترى تحرُّكات العدوّ وهو يتنقّل بناقلات الجند والدبابات تجوب الشوارع وتنتقل بين الحارات مخلفة القتل والدمار فراحت تدفع عقارب الساعة وتعتصر الليل بفكرها وخيالها وتدفعه بيديها إلى المخاض ليلد الفجر المرتقب.

بقيت على حالها تقلّب الأيام الخوالي وتضع النهايات لرحلة العمر المديدة حتى تغشّاها النوم وساقها بعيداً عن دنيا البشر عارجاً بها نحو السماء على براق الشهادة، فتفتّحت لها الأبواب ورأت مقعدها من الجنة جنّةً ونهراً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ثم استفاقت وصدرها منشرح مسرورة مما رأته في نومها فعجلت إلى ربها تناجيه في هزيع الليل الأخير، وهي تقول:

ـ اللهم مكّنّي من أعدائك ولا تخذلني وانصرني ولا تنصر عليَّ، واقتل بكل قطرة من دمي علجاً، واحملني إلى دارك ولا تردّني إلى داري واجمعني بالأحبة محمد وصحبه آمين يا الله.

ظلت في محرابها حتى بزغ الفجر، ونشرت الشمس ضياءها، فصلت ركعات الضحى وركعتي الشهادة ومن ثم خرجت على أبنائها وأحفادها لتلقي عليهم الوداع الأخير بصمت العيون.

قلّبت بصرها بين السماء والأرض، وفتّشت في أجساد الصغار والكبار بنظرتها الحانية ومن ثَمَّ أطبقت قبضتها على سوار ابنتها أم رمضان فقادتها إلى غرفتها وغلّقت خلفها الأبواب وأجلستها قائلة:

ـ أي بنيتي لقد اخترتك من بين إخوتك لتحفظي سري وتستري أمري حتى يكتب الله لي التوفيق.

حدّقت أم رمضان بأمها وعيونها تفرّ من محاجرها وكأنها تسمع لغزاً يلقى عليها ولا تفهم شيئاً وقبل أن تنبس ببنت شفة؛ فاجأتها أصابع أمها الطاهرة وهي تغلق فاها ثم قالت:

ـ اسمعيني جيداً... مع ظهيرة اليوم سأذهب إلى مكان ما فأنا على موعد مهمّ جدّاً، فيه قد أجد حلاً لقضية لطالما بحثت لها عن حل، وقد يطول مكوثي ساعات وربما أكثر، إن حلّت أقدار الله وحدث أمر طارئ ولم أعد قط فانظري إلى تلك الرزمة من أعواد الليمون ففي وسطها توجد ورقة صغيرة افتحيها ونفّذي كل ما فيها بالحرف.

ارتعدت أم رمضان وقالت بصوتها المتهدج:

ـ أين ستذهبين يا أمي؟!

ـ سأذهب لصيد الأفاعي.

ضحكت أم رمضان.

ـ ماذا؟! ماذا؟! ماذا تعنين؟!

ابتسمت الحاجة:

ـ أمازحك بنيتي ولكني لا أستطيع أن أزيد كلمة واحدة على ما سمعت فافعلي ما تؤمرين.

سمعاً وطاعة يا أمي.

عانقت بشفتيها خد ابنتها فأحسّت ابنتها بريح الجنة يفوح مسكاً من فيها... لكنها لم تجرؤ على السؤال ثانية، فخرجت من الغرفة مغلقة الباب خلفها وله صكّة كأنما يعرب عن لسان الخشية على والدتها.

احتاجت الحاجة وقتاً للانفراد بنفسها قبل الذهاب حيث اتفقوا على اللقاء، فآثرت أن تمضي الوقت المتبقي مع أعوادها فأخرجتها من مكانها ومدّدتها على حصير وسط الغرفة وجلست تهمس إليها:

ما هي إلا ساعات تفصل بيننا وبين مهد الخلود الأبدي وما هي إلا خطوات تحول بيننا وبين حلمنا الذي عشنا سوية وقد بات تحقيقه قاب قوسين أو أدنى بإذن الله.

تحسست أعوادها للمرة الأخيرة ثم أعادتها مكانها وجهزت نفسها ثم خرجت فإذا الصغار والكبار يملؤون باحة البيت فأقبلوا إليها يتشبثون بأطرافها كعادتهم ولا أحد منهم أحس أنها قد تكون النظرات الأخيرة التي يكحلون بها عيونهم من هذا الجسد الكريم الراحل نحو السماء.

خرجت من بينهم كأنها الروح تحلق بلا حدود ولا قيود نافضة عن كاحلها أدران الدنيا وأرجاسها، متحلّلة من عبء السنين المضني ولتغلق بوابة الدنيا من خلفها لتتفتَّح بوابة السماء أمامها، وهي تتمتم: أودعتكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

وبخطاً مطمئنة تقطع الأزقة والشوارع وبحذر شديد من أن تغتالها يد الغدر أو تفاجئها قذيفة عمياء على حين غرّة، تنقلت من زاوية إلى زاوية وبصبرها تخترق الحجب كأنه بسهام الشمس لا يعترضها شيء حتى وصلت الموقع، فإذا الجميع بانتظارها في قوس كالهلال يتوسطهم حزامها المتفجر فخرَّت على ركبتيها تقبله وسرعان ما التحفته قائلة:

ـ أم محمد جاهزة تمام يا شباب.

كانت الساعة تقترب من المغيب، واستعدت السماء لاستضافة

عروسها وكانت الأرض تبكي وداعها، وهي انقطعت تماماً عن هذه الدنيا وراحت تحلق بعيداً حيث تريد كانت تحلق في السماء عندما طلبوا منها امتشاق بندقيتها والوقوف أمام راية الحق المبين ليلتقطوا لها صورة ستغيظ الأعداء وتدب الرعب في صدورهم وتفرح اليتامى والثكالى والأرامل ويهتدي من خلالها كل الحيارى إلى سواء السبيل.

التفت من حولها الثلّة المؤمنة فالتفتت إليهم وهم يرددون الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر... ثلاث كلمات كانت هي الأذان الأكبر والوداع الأخير خرجت من بينهم لتقول كلمتها الأخيرة في هذه الدنيا والتي اختارت أن تكون محكيَّة بلون الدم.

كانت ليلة الجمعة **٢٣/ ١١/ ٢٠٠٦** بعيدة وتقبل على مهل، فراحت إليها فاطمة على عجل حملت بين يديها طعاماً وخبزاً، ومن تحت ستارها يكمن حزام الشهادة، وخطاها تنقلها واثقة مطمئنة من نصر الله وهي تردد:

بدمي أسطر قصتي وجهادي ودليل صدقي عدَّتي وعتادي
رشاشي الهدار يروي باسماً للناكصين حكاية الأمجاد
طلع الصباح وساحتي مملوءة بالمعتدين وزمرة الأوغاد
طلقات رشاشي بليل دامس أحلى وأشهى من لذيذ رقادي

إن هي إلا دقائق معدودة حتى اجتازت بدهائها كل الحواجز العسكرية وتخطت أرتال الدبابات وآلات القتل والدمار المنتشرة في كل مكان، وما أن وصلت الهدف تصرفت حسب الخطة المعدة مسبقاً، توجهت نحو الباب وطرقت الباب فصاح الجند من على ظهر البناية:

ـ مين هون؟!

فردت بصوت المطمئنة:

ـ الحاجة أم محمد.

ـ شو بدك؟!

ـ أحضرت طعاماً وخبزاً لقريبتي.

ـ روح من هون روح.

ـ ما بروح معي خبز للصغار.

ـ دقيقة.

تنتظر الحاجة على باب البناية دقائق معدودة يفتح الباب فإذا قريبتها ومن خلفها جندي يصوب البندقية على رأسها.

نعم، هذه الحاجة أم محمد خالتي، بيده النجسة أزاح المرأة للوراء وطلب من الحاجة أن تدخل وتغلق الباب.

تقدمت ببطء فلما توسطت الجند وقد غادرت قريبتها وأحاطوها إحاطة السوار بالمعصم وكأنهم هدهم الجوع، ارتجّ المبنى وكأنما ضربه زلزال أو أفرغت فيه صاعقة كانون فتناثرت الأشلاء وسالت الدماء وعلا الصراخ والعويل.

لقد قالت كلمتها الأخيرة ونطق حزامها بعد صمت دام سنين معلناً النصر المؤزر للشهادة والشهداء والهزيمة النكراء لكل الغزاة والطغاة.

كانت جثث الجنود تملأ المكان وحديد سلاحهم قد انصهر من حرارة دم الشهادة.

اهريق دمها الزكي الطاهر ليختلط برمال جباليا فتحيلها حمراء قانية بعدما لفحتها أزمة الاحتلال المديدة فأحالتها سوداء قاتمة.

هبت نسائم النصر وأعلنت المآذن عرس الشهادة فتمايلت غزة طرباً على نغمات نسوتها وهن يرتلن أنشودة النصر رغم الحصار وحظر التجوال والموت الذي يتربص الناس في كل مكان، رغم كل القيود خرج الصغار والكبار إلى الشوارع يتبادلون الحلوى ويرددون فليفرح الصغير والكبير، الجريح والأسير فإنه عرسك أم محمد، أم الفدائيات والشهداء.

عجّ بيتها بالمهنئين والذين جاؤوا من كل حدب وصوب يشاركون الفرحة أهلها وحال كل واحد منهم لو كان هذا العرس عرسي لكن الله يصطفي من يشاء ويختار.

وبينما الضجيج يخيم على المكان خرجت عليهم ابنتها أم رمضان مشيرة بيدها ليهدأ الجميع ليهدأ الجميع، حمدت الله وأثنت ثم دعته أن يتقبل الشهيدة ثم قالت:

ـ أوصت الشهيدة: إذا جاءكم خبري فانثروا العطور والزهور، ورشوا البخور، وهذه أعواد البرتقال هي الماضي والحاضر والمستقبل فاصنعوا منها نعشي أرتقي به نحو الجنان، واكتبوا على لحدي: من هنا سينبت برتقال يافا وليمون حيفا والمجدل ومن هنا سينبع نهر الأمل ليمتزج ببحر الساحل الأسير فيطفئ ظمأك. فلسطين الحبيبة.

فلسطين الحبيبة.

امرأة على المحك

كانت في الثلاثينات من عمرها عندما سكنت عيناه في حجرها، وقد أودعها تسعة من البنين كبيرهم لم يتجاوز الربيع الثاني عشر من عمره، تركها لما اكتملت شباباً واكتسبت حلة بهية من الجمال والوقار تسكن إليها كل روح هائجة من متاعب الحياة فتهدأ ثائرتها وتبرد جذوتها، وترحل إليها القلوب بأنظارها كلما هبطت عليها أو استرقت بصيصاً من شعاع نورها، تركها راحلاً غير تارك بين يديها سوى الذكريات بحلوها ومرها تعينها على هبات الزمن ومجريات الأقدار، وقد تأكل الحرة حتى تشبع من الذكريات، وقد تنهل من خبايا الذكريات زلالاً حتى ينطفئ ظمأ سنيها، ولكن هل يجري هذا على صغارها الذين لا يجدون رضاعة الأحلام والذكريات بدلاً من اللبن والحليب.

انتهت أيام العزاء الثلاثة وضعت نحيبها أمام عويل صغارها وقرقعة أمعائهم الخاوية فألقت شذرات عيونها (إلى خابيتها)، فلم

تجد إلا كسرة من خبز الشعير قد لونها العفن وسكنتها البكتيريا، بللتها في صحن ماء لتقضمها الأضراس الفطيمة، نهشت الأيادي البريئة كسرة الخبز المحلاة بالماء وأم أحمد شاردة الذهن تفتش بين ثنايا الأيام عن معيل ينقذها وصغارها من وحشة الفقر وقسوته، أو مصدر للقمة تقيم الصلب وتسد الرمق، لم يطل شرودها وتفكيرها، فإن من حولها من الأقارب وأبناء العمومة قد تخلى وابتعد حتى قبل رحيل فارسها، وغيرهم لن يقدم يد العون إلا بمقابل ليطفئ شيطان شهوته وهى الحرة التي تجوع وتجوع ولا تأكل بثدييها.

كانت ساعات الليل تتعاقب مسرعة نحو صبح جديد وقد رقد الصغار في جوف الليل يعذبهم بأحلامه حتى اتخمهم، وهي تنقل راحتيها بين وجناتها تارة وعلى رؤوسهم أخرى حتى انبلج الفجر؛ فألقت حصيرة من قش على مسطبتها ووقفت تبتهل بين يدي خالقها حتى صحا الفجر وغدت طيوره تتلقف أرزاقها، ما إن أكملت صلاتها ودعاءها حتى التفتت إلى بكرها أحمد الذي طوى قدميه في بطن بطنه واضعاً يديه بين فخذيه ورأسه قد التصق بركبتيه، فعرفت أنه يصارع الجوع في نومه فهالها الحال فقامت مسرعة نحوه أحمد.. أحمد، قم يا أمي... انتفض أحمد مرتعشاً كأنه أفاق من

كابوس لازمه ليلاً كان الأطول عليه منذ عهده بهذه الحياة.

أمي ما بك؟

قم يا ولدى، اسمع جيداً، بعد ساعة من الزمن أيقظ (زينب) من نومها حتى تجهزكم للمدرسة، وقل لها إن أمي ذهبت لتأتينا بقوت يومنا.

قبلت رأسه ومررت أصبعها بين شعره فبددت فزعه وحيرته... كانت قد ورثت حماراً وهذا كل ما أورثها إياه رفيق الدرب وما الضرر في ذلك؟ فقد يكون أنيسها في وحشة الأيام ولوعتها، أعدته ثم اعتلت ظهره قاصدة وجه الله مع البكور... كانت في حيرة من أمرها فتسابقت الأسئلة على لسانها... أين وجهتي؟ ماذا أريد؟ أم أنه الهروب من وجه الصغار وعيونهم الباكية الجائعة، وإن كان الهروب فإلى متى سيستمر؟ فلا بد من العودة إليهم فلن أكون أقسى من الأيام على صغاري سار بها حمارها دون توجيه منها وكأنه علم مقصدها، وأدرك حاجتها وحاجة صغارها فعزم أن يكون الوفي المخلص في زمن صارت فيه هذه الكلمات مجرد شعار يرفعه أصحاب الشوارب والقبعات... مشى بها حمارها حتى عبر حدود (٦٧) الحدود الفاصلة بين الضفة الغربية المحتلة من فلسطين والشق الساحلي الذي سكنه

قطعان المحتلين، عبر بها الحدود الممزقة بأسلاكها وشباكها حتى حط بها بين الغابات والأشجار الملتفة التي أضفت جمالاً ساحراً على القرى والخرب المهجرة (بيوس وأم السويد وغرابة) وغيرها من القرى الواقعة على بعد ٣٠ كيلو متراً غرب مدينة الخليل التي ذبح من أهلها من ذبح على أيدي البالماخ والهجانا من الصهاينة ولم يبق إلا أكوام الحجارة المهدمة وبعض الأقواس الطينية شاهدة على فظاعة وجريمة هذا المحتل.

نزلت عن ظهر الحمار وتنقلت بخطوات بطيئة بين تلك الأشجار الحرجية التي لا تحمل ثمراً ولا تقطر عسلاً، لكنها احتضنت تحت ظلالها أعشاب الزعتر والميرمية والعكوب وورق اللسان وأعشاباً ربيعية تتحلى بها جبال فلسطين ووديانها.

نعم إذن لقد جاد الكريم وأفاض بنعمته وجادت أرض الآباء والأجداد وأفاضت عليها حنينا لما هجرها الأقارب وراودها الغرباء عن نفسها، وأطعمتها من حشائشها وعشبها فما أغلقت الأبواب في وجهها قبل أن تطرقها، فأخذت تلتقط الأعشاب ببراعة تسابق عقارب الساعة، فما أن مالت الشمس عن كبد سمائها حتى كانت فاطمة (أم أحمد) قد ملأت كيسين كبيرين من أعشاب الزعتر والميرمية وقليلاً

من العكوب الذي حنت عليها تلك الجبال من جنيه، لم تعطها إلا القليل الذي سيفي لإطفاء جذوة الجوع عند صغارها ورغم ذلك كانت فرحة مغمورة بالسعادة وكأنها سقطت على كنز العمر الذي سيقيها وأولادها مصيبة الدهر ولوعته.

حملت رزقها على حمارها ثم ركبته عائدة وقد جعلت الشمس من خلفها تغرق في حمرة شفقها، وهي تحدث نفسها على طول المسير غداً أبيع الزعتر والميرمية وسيبقى العكوب عشاءنا اليوم وفطورنا غداً، وسنشتري بما يعود علينا كل ما يحتاجه الصغار من غذاء ولباس.

وهكذا بدأت رحلة العمر المريرة كل يوم قبل بزوغ الفجر ترحل أم أحمد على ظهر حمارها متنقلة بين الجبال والوديان، بين السهول والتلال تلتقط قوتها وهي تبني الأحلام في رأسها، وترسم المستقبل لكل من أولادها وبناتها التسعة غير مكترثة بحرِّ الشمس اللاهب، ولا يثنيها عن مشوارها برد الشتاء القارس، تحتمي تحت ظلال الأشجار من حرّها وتؤويها الكهوف والمغارات من أعاصيرها ورعدها وبرقها، تبيع ما تجود به الأقدار عليها وتشتري ما يحتاجه العيش وما تفرح به الصغار شعارها كرامتنا هي وجودنا، فلن نمتهن

كرامتنا باليد السفلى بل نحفظها باليد العليا، فنحفظ بذلك وجودنا.

كانت ترسم المستقبل بين فكرها ونفسها.

كان أحمد هناك يفكر بملء رأسه حتى أخذ قراره بترك المدرسة والولوج في بحر الحياة بكدّ، ويعمل أي عمل يمكنه من مساعدة أمه، ويعينها على مجابهة مشاق الحياة، كان للقرار أثره على أمه التي لم تشأ له ولمستقبله مثل هذه النهاية، ولشبابه مثل هذه البداية، لكنها آثرت الصمت والانصياع حتى لا يسمعها كلاماً قد يجرح مشاعرها أو يلقي عليها سؤالاً لا تستطيع الإجابة عليه وقد عرفت جيداً أن الحياة ومتطلباتها قد أنهكتها ونالت منها على جميع الاتجاهات النفسية والجسدية والاجتماعية فتركته لقراره، فخاض معها غمار الحياة يعمل بجهد ويجني عرق جبينه، ثم يساعدها في تعليم إخوته، وبدا مستقبله في الزواج مبكراً من شريكة عمره التي قد تكفيه بفيض حنانها وعطفها وتكون له يداً على ملمات الزمان.

كانت أم أحمد أكثر ما تعانيه عندما يتقدم أحدهم لخطبتها تصريحاً أو تلميحاً، أو يلقي إليها أحدهم سهامه الخبيثة، فهي تعلم أن الرجال صيادون ماهرون في نكبات الدهر وهزاته، وأنهم لا يتورعون

عن إبراز شهواتهم في أي لحظة ضعف قد تبديها المرأة مهما كان وصفها وحالها، فكانت حاضرة دوماً بفعلها المسدد المصيب وبلسانها الذي كان كالسيف إذا قال قطع ومنع، وهي تحفظ قوله عز وجل ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

رفضت أم أحمد كل من قال لها هيت لك حلالاً أو حراماً، وآثرت الوقوف على صغارها حتى كبروا وصاروا رجالاً وتزوج الشباب والبنات وهي الحافظة لعرضها، الحافظة لزوجها في غيبته، العفيفة الصابرة التي لوحتها أشعة الشمس الحارقة حتى رسمت على وجهها البهي ألوانها، وحفرت الأيام في صفحتها أخاديد لكنها ظلّت ناضجة بهيّة بتقواها وعفّتها.

عاشت أم أحمد سنينها المجحفة، تسكن الجبال الأيام والليالي باحثة عن رزقها، تكدّ جاهدة لا يضيرها شيء. همها الوحيد أن لا يمن عليها ولا على صغارها إنس ولا جان في هذا الوجود.

ظلت الأيام تتناقلها، وترحل بها سفينة الحياة بين أمواجها المتلاطمة وعرصاتها المفجعة حتى ولدت فلسطين انتفاضتها الأولى، وقد أصبح (آخر عنقودها) جمال في ربيعه السابع عشر وهو الباقي في حجرها ولم يتزوج بعد، وكان حاله حال شباب فلسطين، لا يمكن إلا

أن يشارك في فعاليات الانتفاضة فيقارع المحتل الغاشم ويرفض وجوده بأي شكل من أشكال المقاومة المشروعة سماوياً وحتى وضعياً، وهي حق البشرية الباحثة عن حريتها وحق الشعوب المسلوبة.

وبين هذا وذاك، أدركت أم أحمد أنها ستفقد حبيبها وقرة عينها إن لم تحافظ عليه وتراقبه في أفعاله، وحتى لا تغتاله رصاصة غادرة، أو تلتقفه الأيادي الظالمة فتلقي به في غياهب السجون.

لكن جمال ضاق ذرعاً من حرص أمه الشديد الذي يقيد حركته ويعيق نشاطاته الجهادية، وكان يشتاط غضباً كلما وجهت إليه الأسئلة وكلما تلقته بكلماتها الخائفة المرتجفة، وهي التي لا يهدأ لها بال، ولا تقر لها حال، ولا يغمض لها جفن حتى يعود؛ وهي قلقة من أن يصيبه مكروه فيكفيها مصابها الذي ألمَّ بها منذ زمن ولازمه حياتها ليلها ونهارها.

جمال وضع أمه أمام حقيقة يعتقدها ويؤمن بها، حقيقة أن هذا المحتل لا بد أن يرحل عن أرضنا. وإن من الخيانة أن يتقاعس، أو يتخلف أي من أبناء هذا الشعب عن واجبه الديني والوطني، ووضع أمه أمام خيارين أحلاهما مرٌّ، إما أن تتقبله بفكرته ومنهج حياته أو أنه سيرحل عن ديار هي تسكنها.

أمام هذه الحقيقة الواضحة وأمام هذين الخيارين وجدت الأم نفسها تغرق في دموعها فأجهشت بالبكاء حتى علا نحيبها، ظناً منها أن البكاء قد يلين هذا القلب القاسي؛ فيعطف عليها، ويداري حزنها وحرصها عليه.

لكن جمال بعقله العارف بدا عازماً غير متردد فيما اختاره وكان شعاره «عرفت فالزم»، ومن العار أن تموت جباناً.

هذا العزم من قبله جعلها تستسلم متقبلة فكرته ومنهجه ورؤيته في مقارعة هذا الغاصب والبحث عن حق الآباء والأجداد، ففضلت ذلك على رحيله عن عيونها التي طالما لحظته بالعطف والحنان منذ نعومة أظافره حتى صار شاباً يملأ الحياة من حولها شقاوة وسعادة.

فقالت: يا ولدي لك ما تريد، شريطة أن تجعلني مهبط سرك ومحرابه، حتى أحيطك بتجربة الحياة التي ملكتها. وأظنها ستكون لك سنداً في عملك وتنير لك بعض الظلام الذي تولده ثورة الشباب واندفاعه.

فرح جمال بما سمعه من أمه، وأضمر في نفسه أن يطلعها على هامش بسيط مما لا يخبأ ولا يكشف أسرار فكرته وأصحابه،

وعزم أن يشاركها الأمور الصغيرة التي يعلمها القاصي والداني، هذا من أجل أن تمنحه حرية تسمح له بممارسة أعماله ونشاطاته دون منغصات أو معوقات، وبهذا نال رضاها وكسب ودها واستفاد من خبرتها في تقدير بعض أموره وشؤونه.

وهنا تجلت مرة أخرى شجاعة هذه المرأة الصابرة عندما رضيت بأن تشارك قرة عينها جهاده ورفضه للمحتل، صحيح أنّها كانت بداية الأمر قد اختارت المرَّ بدلاً، إلا أنها مع الأيام علمت يقيناً أن من واجب الدين والوطن عليها أن تضحي بالغالي والنفيس من أجل فكرة أو رسالة، فكيف إذا كانت هذه الرسالة رسالة السماء؟ فمن الجدير أن يضحي الإنسان بكل شيء من أجل هذا فما مضت الأيام والشهور حتى كان جمال أسيراً لدى جنود الصهاينة مرة بعد مرة، وأمه صابرة محتسبة أمرها وأجرها على الله حتى جاءت المرة الأخيرة التي ألقي القبض فيها على جمال وقامت الدنيا وقتها لأن مجموعته (مجموعة صوريف) جاءت في زمن كانت قد هدأت فيه جذوة المقاومة في فلسطين وذلك بين عامي **١٩٩٥ - ١٩٩٧**، حتى تم الكشف عن هذه المجموعة بعد استشهاد عضوها الشهيد موسى غنيمات ـ رحمه الله وتقبَّله ـ في تاريخ **٢١/ ٣/ ١٩٩٧** في عملية

استهدفت تجمعاً صهيونياً في مدينة تل الربيع (تل أبيب) المحتلة منذ عام ١٩٤٨.

وتمّت مطاردة باقي أعضاء المجموعة حتى ألقي القبض عليهم وكان آخرهم جمال الذي قام مع أفراد مجموعته بقتل أحد عشر صهيونياً فأودع السجن محكوماً عليه بالمؤبد خمس مرات، الأمر الذي لاقته أم أحمد بالزغاريد والافتخار والاعتزاز رغم مرارته على النفس ووقعه على روحها الطاهرة، وما كان منها إلا أنها قالت: من أجل عينيك يا فلسطين الحبيبة أهديك جمالاً: روحاً ودماً وسنينه المديدة.

إذن هي صفحة خالدة من صفحات الخلود الطاهرة في هذا الزمن الذي اعوجَّت فيه خطوط الطول والعرض؛ وشوهت خريطة الأرض من شرقها إلى غربها، فصار الظالم قاضياً والسارق مالكاً وقل فيه النصر، وعز فيه الرجال، وصارت النساء والفتيات لعباً منصوبة على أرصفة الزمان يتعبدها المارقون، ويتاجر بها شذاذ الفكر الرجعى الجاهلي لتبقى أم احمد ومثيلاتها هن الحرائر وهن المثال للأم المربية الصالحة وللمرأة الصابرة المجاهدة رافضة أن تضع نفسها في قوالب الفكر المتحضر بجاهلية هذا الزمان.

والذي يجعل منها الهوية، تتناقلها الأيادي العابثة، وترمقها العيون الجشعة بسهامها الشهوانية البشعة.

إهداء إلى الوالدة الحبيبة

الحاجة فاطمة

الأسير جمال الهور

سجن نفحة الصحراوي

٢٠١١/٠٦/٠٤م

جدار الموت

ينتفض فزعاً من فراشه، صوت يهدر، يخترق عليه نافذته، حيطان الدار تهتز وترتعد، حسبها ستهوي فتتطاير أحجارها هاوية في عمق الوادي، مودعة قمة الجبل التي سكنتها وتربعت على عرش عنفوانها دهوراً وأزماناً مديدة.

محمد يقفز من شدّة الخوف من فراشه والرعب يسيطر عليه، فشبح الموت يلاحقه شبح مخالبه كأنها شيطان، أنيابه ألسنة لهب وعيون جمر يقدح شرراً.

يفر من خوفه إلى جنبات الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا الكابوس المخيف؟!

في زاوية الدار جرة ماء من «فخار» دوَّرتها يدُ جد العجوز «نكبة» فيمد يده فيملأ كأسه فيشرب حتى يروي خوفه ومن ثم يمسح وجهه بقطرات دافئة فتطمئن عيناه وتتفتَّح أقفالها.

يدعو الله عز وجل أن يعيد جدته التي طال غيابها، ولا يعرف عنها إلا أنها تسكن خيمة مزَّقتها عقود السنين، حتى ترهّلت وتناثرت الثقوب على صفحتها فبدت كمصفاة للشمس، وأصبحت تنحني أمام عواصف الأيام، لولا أن أوتادها مغروسة في أعماق الأرض؛ لشردتها الأعاصير، ومزقتها شرَّ ممزق.

«يا رب» كيف صارت جدتي اليوم؟ أكيد ظهرها احدودب وشعرها صار أبيضَ من الشيب، وعِينها غارتْ في بَطْنِ الزمن، اليوم تقف على عتبة السبعين، وما ظل من الشيب، «بس أكيد جدتي ما نسيت الأيام الحلوة وعين الميّة اللي كانت تملي منها ميَّة أيام وهي صبية، وشجرة الخروب الكبيرة باب الدار، يا ناس جدتي لليوم بتذكر وبتحلم نعود، ياه يا الدنيا، ظلت ها الجرة تذكرنا فيك يا جدة».

يلتفت محمد حوله فإذا بأمه الخنساء تسند يدها على زاوية باب الدار ويدها الأخرى على خدها، جامدة لا تتحرك، كأنها قالب من حديد... مشى نحوها خطوات:

ـ صباح الخير يا أم مظلوم.

لم يسمعها تجيبه فيعيد عليها التحية.

ـ صباح الخير يمّه.

ـ ها.. محمد.. صحيت.. صباح النّور يمّه.

ـ شو وين سرحانه يا حجّة؟!

تتأوَّه من أعماقها.

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل على الظالمين! جرّفوا الأرض، وخلّعوا الشجر والحجر، راحن الزيتونات وشجرة الخروب واللوزة الحلوة، طول عمر أبوك «مفقود» بربي فيهن زي ما رباكم يمّه..

ـ مين هُمّهْ الي خلعوا الشجر وجرفوا الأرض؟ شو بتحكي يا حجة؟!

ترد عليه باستغراب:

ـ شو مش سامع صوت الجرافات بتهدر في الواد ولا بعدك نايم؟!

ـ ها.. أي صوت؟! عن إيش بتحكي؟!

تذكر محمد كابوسه الذي أفزعه وشرده من منامه.

ـ يمّه أنا كنت في كابوس وحلم بخوّف الحمد لله إني صحيت.

ـ لا يمّه يا محمد مش كابوس طل على الواد بتشوف بعنيك الدمار والخراب.

أسرع محمد على الشرفة، فما أن وقع بصره على حضن الجبل، حتى رأى جبلاً من حديد يلتهم جبل الصخر والتراب ويلتهم الجبل والوادي، يأكل التراب والأشجار والأحجار له لسان عريض، وأسنان كمطارق الشياطين التي يحكى عنها في الأساطير، يأكل كل حي وجماد، رأى أشجار الزيتون تتهاوى وهي تصرخ بأعلى صوتها مستغيثة، ثم تسكت سكوتها الأبدي، تخرّ مضرجة في زيتها والذي بدا بلون الدم، وصخور الجبل الكبيرة تفر مذعورة من مرابضها تطاردها مخالب الغدر الضالة، شاهد محمد هذا المنظر الرهيب، واللسان الشرير الذي لا يوقفه شيء ولا يكاد يشبع أو يرتوي، ... فيصرخ:

يا الله شو هالوحش الغريب؟!

منوين أجانا.. ليش بيعمل هالعمل الوحشي والمجرم الشنيع؟ يو.. والله قرّب من بيت عمي «معذب» وزوجته «مقهورة»، الله يستر.

رجع محمد إلى البيت مسرعاً، والفزع بين أكتافه، يلبس «صندله» المقطع، ويهرول نحو الوادي، ليرى عن كثب ويشاهد ما يجري، والخوف لوّن وجهه، يقترب قليلاً من ذلك الجبل الحديدي المتحرك، وصوته المزعج يدكّ مسمعه، ويكاد أن يمزق طبلة أذنه

لكـنّ محمداً لا يبالي فتزحف به قدمـاه، ويكتم أنفاس الخوف حتى يخفـي رجفـة قلبـه، ويحـاول أن يضبـط حركـة رجليه التـي أخذت ترقص فرقاً ورعباً.

يناديه هاجس من أعماقه: لا تقترب يا محمد، ارحل من هنا، مالك ولهذا؟! فلن تكون بجسمك الهزيل هذا أقوى من تلك الصخرات؟! ولا تحسبن رجليك أعمق غرساً في باطن الأرض من جذور الزيتون الرومية؟! فأنت تراها كيف أصبحت محطمة، مشلولة، وتقطعت أعضاؤها أشلاء وحبات زيتونها ديست وتفرقت في قعر الوادي شذر مذر، وزيتها جُبِل مع تراب الأرض حتى صار التراب وكأنه يسبح في بركة كانون.

يا محمد ارحل بسرعة قبل أن تصبح أثراً بعد عين، فما أنت إلا لقمة سائغة ووجبة شهية، تذوب على صفحة لسان ذلك الوحش الأعمى.

يرتجّ دماغ محمد، ويتحدّى شيطان خوفه.

اسكت يا نذير الشؤم والسوء.. كيف أهرب؟! وهذي أرض جدي «مغلوب» بتتجرف وهذاك بيت عمي «معذب» الحين بدّمر... إذا هربت أنا مين يوقف هالوحش إلّي بيبلع كل إشي بين فكيه، ومين

راح يطفي لسان اللهب إلّي بيحرق تراب الوادي والجبل؟!

مش شارد.. مش رايح من هان.. شو مَيصير يصير.. ما بيقطع الراس إلا إلّي ركبّه

هل جنّ محمد؟ أم أن مروءته تأبى أن تنحني أمام زوبعة الظلم التي ترقص على جراح الأرض وأنّاتها.

واجب عليّ الثبات والوقوف قدام هالعاصفة وأكيد إنو إرادة ربنا راح تساعدني في كسر وتحطيم هالشيطان قبل ما يخلي دار عمي هباءً منثوراً، وبعدين هالدار والله ما بتحتمل لدغة وحدة من لسان هالوحش وبتصير في خبر كان.

محمد عزم أمره على الوقوف في وجه هذه الكتلة الحديدية والتي نعتها بالشيطان ويقاوم زفراته القاتلة، وفي البيت أم مظلوم يطول انتظارها، وعيونها تعبت، وهي ترقب زقاق الدار فلم يعد محمد حتى الساعة، والمغيب اقترب، وعما قليل يتسلل الليل بسيف عتمته لينقض على نهار يوم احدودب ظهره وأفل شبابه.

قلقها يطبق لسانها.

مشرد.. مشرد.. روح يمّه شوف أخوك محمد.. ليش ما رجع؟!

من الصبح راح عأرض جدك وما رجع... وقلبي والله يمّه ناقزني وخايفة يكون صار لأخوك إشي.

لا تخافي يمّه عَ محمد... إنتِ عارفيته زي الجن بيخرق الأرض وبيطلع منها يمكن راح مع أصحابه وألحين برجع.

يرد مشرد بسذاجة الصغار التي لا تلقي بالاً، ولا تأبه بتلك العيون في وجه أمه، والتي تكاد تقفز من حضنها، لتذهب متعقبة أثر حبيبها، ولا يدري أن تحت صدر أمه قلباً يغلي منذ الصباح في وقد الخوف ويصطلي بلهب الانتظار.

فتصرخ في وجهه:

الله أكبر عليك... روح شوف أخوك... بقلّك قلبي ناقزني عالولد.

يدرك مشرد قلق أمه على أخيه، وشاهدها تحاول أن تقفز من مهجعها، وسمع نحيباً قادماً، فيشفق على حالها، ودون تردد:

صبرك علينا يا حجة.. أنا رايح أناديه.

ما أن زلفت قدما مشرد قليلاً من سفح الجبل نحو الوادي، حتى رأى أشباحاً ومردة ممتدة في بطن الوادي وليس بعيداً من بيت عمه معذب.

فيقف غير بعيد، منادياً بصوت مهزوز، وشفتاه ترتعدان فرقاً، وعيناه جمدتا مما رأى ويصرخ بصوته المتهدج:

محمد... محمد... محمد.

لا أحد يجيبه ولا حياة لمن تنادي، لا يسمع إلا صوت وحش يزمجر، ويتبختر عارضاً عضلاته، وأشباحاً تحيط به من كل جانب.

تصطك أسنان مشرد، ويتلبسه شيطان الخوف، الذي عقد لسانه، فيعود أدراجه دون أن يجرؤ على التقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

أمه الخنساء التي لم تستطع أن تبقى أسيرة الانتظار، شدت إزارها وخرجت في إثر أبنائها وقبل أن تبتعد عن البيت إذ بها ترى مشرداً عائداً وحده، فشهقت شهقة ثم خرّت جاثية على ركبتيها، صامتة، كأنها قرأت الغيب بحدسها.

يقف مشرد بجانبها، ولسانه خرج من جوفه لاهثا من الخوف، وبصوت متقطع:

مش لاقيه يمّه.

وبعدين شفت أشباح بيضة، وطويلة، إمّدّده في الوادي، وكمان أشباح واقفة عند دار عمي معذب، ودار عمي اختفت مش مبينة محلها عالتلة... إشي بخوّف يمّه يلاّ نروح أكيد بنلقى محمد في الدار.

تتماسك ترتكز على كتف ولدها، وتمشي بخطاً متأرجحة، وحدس الأم وحاستها تخبرها أن محمداً لن يعود أبداً فقلب الأم دليلها، تحاول أن تهرب من هذا الحدث القاسي، لكنه يطاردها فتستسلم محتسبة أمرها لله.

تدخـل الدار وهي واثقـة أن محمداً غير موجـود فيها، إلا أن مشرداً يبدأ المناداة على أخيه ولا مجيب.

الليل أكمل سلطانه، فأتى على النهار، الذي لم يجرؤ يوماً منذ الأزل أن يسهر في ليل معتم، فيولي مندحراً، فلا مكان هنا للجبناء، ولا للضعفاء، إلا هذا النهار المطرود، فيغادر ساحة المعركة وهو يتوعد ويتهدد، ولسان حاله يقول: «الأيام دُول يا ليل» يوم لك ويوم عليك، اليوم نفرّ وغدا نكرّ، يقهقه الليل متباهياً بنجومه وشهبه، فمن يستطيع أن يقف أمامي؟ أنا الليل بنجومه الساطعة، وبشهبه الحارقة، وقمره الذي يركع لجماله العشاق، ويستتر تحت عباءته السوداء كل شارد وواردٍ.

بعد صلاة العشاء من كل يوم، يجتمع أولاد «الخنساء» مظلوم ومشرد وجريح وأخواتهم حالمة وأحلام وأمل، ويغيب دوماً زوجها «مفقود» فمنذ أن خرج من الدار من زمن بعيد لم يعد إليها، وولدها «أسير» القابع في سجون المحتلين الغاصبين منذ عشرات السنين، وبقي من حكمه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فهو لا يستطيع أن يأتي إلا في المناسبات وعندما يسمح لها بزيارته بين الحين والحين أما ولدها «مطارد» فهو لا يستطيع أن يأتي إلى الدار، فهي محروسة بعين الرقابة على الدوام، وإذا ما فكر مرة بزيارة أمه فسيكون ذبيحاً بسكين الحنين على عتبة الشوق، ولهذا هو لا يستطيع أن يحوم حول الحِمى مخافة أن يقع فيه فيسقط في شبك الثعالب الماكرة وشركهم.

وأختهم الكبيرة «حرية» هربت منذ زمن، ولم يعرفوا لها سبيلاً، وكلما لاح لهم في الأفق خبر عنها جاءت رياح الظلم عاتية فبددته، أو جاءهم بشير يزف إليهم أن حرية ستعود قريباً مع أبنائها وتمتلئ دياركم أفراحاً وتودعون زمن الأتراح.

هبت العواصف غربية بلكنة صهيونية فحملت بشيرهم وأغرقته في بحر المجهول.

التف الجميع ممن حضروا حول أمهم وهي صامتة، جالسة

القرفصاء كضفدع في زاوية الدار، تحوم عيونها وسط رأسها مذعورة، تسمعهم يتهامسون، يسألون بعضهم عن محمد.

وين راح؟ شو مصيره؟

يقاطعهم «جريح»:

أكيد عند أصحابه.

بس ما بتأخر في الليل عن الدار! أكيد في إشي صار معه.

يا جماعة الخير بنصبر للصبح ومتل ما بقولوا الصباح رباح.

يا جماعة سامعين هالصوت المزعج إلّي جاي من جهة الوادي ما وقف بالمرة وما سكت... شو بيعملوا؟!

مشرد: انتو بتعرفوش؟!.. أنا رحت الصبح أدوّر على أخوي محمد وشفت أشباح بيضة طويلة وضخمة شفتها صف في نص أرض جدي مغلوب وقدّام دار عمي معذب

شو بتقول يا مشرد؟!

آه والله بس نفسي أعرف شو هالأشباح المصطفة في بطن الوادي وبعدين إذا بضلوا هناك مش راح نعرف دار عمي بالمرة.

الله يجيب إللّي فيه الخير، يلّا ننام، والصبح يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ذهبوا جميعهم إلى فراشهم، وبقيت الخنساء جالسة في زاويتها ككرة جامدة لا تتحرك إلا أنفاسها تهز ملاءتها كلما لفحتها هواجسها ثارت فأطلقت غيظ جوفها.

وجاء الغد، وتردَّى النهار المغلوب على أمره وجمع عدته وعتاده فاستقوى، وجاء بجيشه الجرار ليهزم ليلاً هدَّه طول السهر، وأرعبه صوت الوحوش الضارية، ونهشت جنباته أفاعي المكر اللعينة.

أقدم النهر شاهراً صمصامه القاطع، وعلى أكتافه كنانته المملوءة بسهام شمسه الحارة.

فلما برز النهار بجنوده لليل وأعوانه، لاذت فلول الليل مهزومة مدحورة، وهرولوا متفرقين مشتتين شرقاً وغرباً.

فأطلق النهار ضحكته الناصعة، وتربعت شمسه على عروش سماء يومها، ونادى النهار في الثقلين، أن هذا زمان جديد، فلا يظلم فيه قريب ولا بعيد، وكل مسؤول عما اقترفت يداه.

أفاق الإخوة على هذا النداء الدافئ وتجمعوا حول أمهم، التي لم تذق طعم النوم طيلة الليل، وشاهدت أحداث المعركة التي دارت بين الليل والنهار، وكانت تسترق النظرات من بين أسنة الرماح، وصفحات السيوف، وتدعو بصمت أن يكون النصر حليف النهار حتى يتضح الحق، ويعود لأهله، وعندها حتماً سيعود محمد، فأمرتهم أن يذهبوا ويتحسسوا من أخيهم ولا يقنطوا من رحمة الله.

عزم الإخوة وأجمعوا أمرهم أن يذهبوا نحو الوادي، حيث بيت عمهم معذب ليبحثوا عن أخيهم وفي داخل كل واحد منهم مائة سؤال وسؤال... لكنهم لا يدركون أن أقدامهم تحملهم نحو المجهول.

فلما وقفوا على السفح مطلين على الوادي، صرخوا بصوت واحد... يا الله.

شو هالأشباح الي لبست ثياب بيضاء وليس لها عيون ولا شعر، ولا بتعرفلها لا راس ولا قاع!

وشو هالسرطان إلّي تمدد يمين وشمال متل البرق وابتلع الأرض وقطعها؟!

وين دار عمنا معذب، معقول صارت دار هالأشباح، ولّا داستها تحت رجليها وسوتها بالأرض؟!

كل هذا صار واحنا نايمين؟!

تعالوا.. يلّا.. نقرّب أكثر يلّا.

كلهم خائفون، إلا أن حياءهم من بعضهم البعض، وحياءهم من أمهم ـ التي تنتظر عودتهم وأخَاهم ـ منعهم العودة وجعلهم يتقدمون لكن بحذر شديد.

فما أن وقفوا قريبا من أقدام هذه الأشباح، ورأوا أنها لا تمسهم بسوء في أجسادهم، تجرؤوا على لمسها بأيديهم، وأخذوا يتحسسونها، فما وجدوا فيها روحاً ولا حياة فهي حجارة صماء سكبتها يد سارق مغتصب، وألقتها كلاليب المحتل على قلب الحق لتوقف نبضه وتقطع شريان حياته.

يتساءلون:

بس كيف راح نصل لدار عمنا؟! عشان نسأل عن محمد.

يلّا نمشي جنب هالحيطان وعمدان الباطون حتى نصل نهايتها، أكيد بتنتهي عند آخر الوادي، وبنلف من الجهة الثانية ونروح لدار عمي.

يلّا.. يلّا.

يهرولون الواحد تلو الآخر، بمحاذاة تلك الأعمدة المغروسة في باطن الأرض، وتمر ساعة وأخرى، حتى بلغهم التعب مع نهاية الوادي، لكن الصاعقة غشيت أبصارهم عندما وجدوا بوابة ضخمة من حديد كتب على لوحة تعلوها «احذر خطر الموت»

«البوابة مكهربة».

شو ألحين؟!

وامتا صار هالإشي؟!

شو نعمل هالحين؟!

بينما هم في حيرتهم إذ طلعت عليهم سيارة «جيب» عسكرية، نزل منها جندي صهيوني، فصرخ العربية بلكنته اليهودية.

ـ شو بعمل هون؟

رد عليه مظلوم:

ـ بدنا نروح على دار عمي.

ـ روح من هون، ما في دار عمك، خلاص هذا كان زمان.

ـ شو زمان.. قبل يومين كنا نروح عليهم.

ـ قلت: زمان ما بتفهم أنت.. اسمع.. روح اطلع على السور.

ـ يا خواجة.. وين؟ شو؟ السور عالي.

ـ اسمع... شو اسمك؟!

ـ اسمي مظلوم.

ـ روح يا «مظلوم» جيب تصريح من المحكمة العسكرية وبعدين بتجي هون وأنا بسمحلك تدخل من البوابة.

يعقد مظلوم حاجبه، والقهر يعلو جبهته.

ـ شو تصريح؟ ومحكمة؟ شو بتقول؟! دار عمي هناك، كلها خطوتين بكون عندهم.

لم يشأ ذلك الجندي أن يطول الحديث بينهم، فيدعه صلفه وحقده على رفع بندقيته التي يفوح من فمها رائحة الموت، فقبل قليل كانت قد ابتلعت جمجمة طفل رضيع، وشربت حتى الثمالة من دم أمه على مفرق مدينة الرام.

أدرك مظلوم وإخوته أن الأمر جد وما هو بالهزل، فأداروا وجوههم وعادوا أدراجهم، رؤوسهم مطأطِئَة نحو الأرض وأنهم يبحثون بين شقوقها عن جواب لسؤال ينتظرهم على لسان أمهم:

ـ ليش ما إجا محمد معكو؟ شو... وين هو.. جاوبوني؟!

وعندها لن يعيد صمت ألسنتهم ولا هروب عيونهم أمام تحديق عيونها وستعقد حاجبيها وتنفجر باكية في وجوههم.

يقطع جريح حيرتهم قائلاً:

لازم واحد منا يجيب تصريح من المحكمة، ما إلنا حل غير هيك.

صحيح أنا بروح وإنتو بترجعوا للدار، وبتخبروا أمنا باللي صار وإن شاء الله بتسير الأمور بسرعة، وبعدين أكيد محمد موجود عند دار عمي ومنعوه يرجع من البوابة متل ما عملوا معنا.

كلهم معاً: يا رب إن شاء الله يكون هناك.

ودع مظلوم إخوته راكباً سيارته نحو مدينة القدس حيث المحكمة العسكرية، حاجز عسكري على مدخل المدينة يوقفه على جانب الشارع.

انزل... هويتك.

أعطى هويته للجندي الصهيوني وأنفاسه تتقطع مخافة أن يعيده من حيث أتى.

وين رايح يا «مزلوم»؟!

رايح عالمحكمة العسكرية أجيب تصريح أزور دار عمي.

دار عمك؟! وين دار عمك؟! في الأردن؟!

لا.. شو في الأردن.. هان في فلسطين.

وين في أم الفحم.. ولّا الناصرة؟!

لا يا خواجه هناك ورا السور.

آه.. قول ورا الجدار... شو ما بتعرف إنو اسمو جدار الأمن.

لا والله لا خواجه هاي أول سمعة منك.

طيب... يلّا... بس إذا برجع بعد المغرب ما بدخل من هون... فاهم؟!

حاضر يا خواجه حاضر.

ينطلق مظلوم في سيارته، يسابق عقارب الساعة، وحركة الشمس التي مالت عن وسط السماء.

مرت أكثر من ساعة وهو يناطح أزمة السير، حتى تمكن من الوصول، أوقف سيارته في ساحة المحكمة، وتقدم على قدميه نحو قاعة الانتظار.

فمـا أن دفـع الباب حتى غطّت وجهه سـحابة دخـان مرّت من ضغط القاعة، فما أن انقشـعت السـحابة ودقق بصره حتى رأى طابور الرجـال يصطفـون خلـف بعضهـم البعـض، تقـدم حتى وقـف آخر الطابور، وأمامه شيخ هرم في السن، تبرز شعلة شيب من تحت قبعته ظهره المتقوّس، ورائحة السـجائر تنبعث من حشـائش لحيته، والتي لونتهـا مع الزمن أعقاب السـجائر بلون الذهب المدفـون في التراب من زمن بعيد.

يتردد مظلوم في البداية من توجيه سؤاله إلى هذا الحاج، لكنه يتدارك نفسه ويعلم أنها دقائق غالية، وهي تمر على حسابه وحساب أمه وإخوته وذاك المجهول المصير.

فيتحدث بهمس: عمي الحج.

فيلتفت إليه بطرف عينه قائلاً: نعم يا ولدي.

حسب علمك يا عمي قديش بدو الطابور تيخلص؟

تظهر ابتسامة الحاج من اهتزاز كتفيه، ثم يسحب نفساً عميقاً.

يا ولدي، إذا ما خلص اليوم بخلص بكرة، والأيام كلها زي بعضها وما ظل إشي نبكي عليه ونستعجل عشانو.

يتنهد مظلوم ويأخذ نفساً عميقاً ثم ينخر بصمت ثم يعاود الكلام:

يا عمي الحاج أنا مستعجل شوي وبدي ألحق أروح قبل الليل والمحسوم بعدين ما بدخلني على البلد.

يا ابني أنا إلي ثلَث أيام بقف في الطابور من الصبح حد العصر عندما بتسكّر المحكمة بحط راسي على هالوطى وبنام لثاني يوم الصبح، وبعدين راح الكثير وما ضل إلا القليل.

نظر مظلوم إلى الطابور وبدأت عيناه تعد الرجال فما أن وصل العشرين حتى سكت ولم يكمل العد، والتفت إلى الحاج.

يا عمي الحاج... ليش إنت بدك تصريح؟

خرجت زفرة من بين فكيه ثم قال:

ولاد الحرام والظلام، أكلوا البلاد وذبحوا العباد.

شو القصة يا عمي؟!

يا ابني.. قبل أسبوع أخذت غنماتي أرعاهن في البلد... ومع غياب الشمس ارجعت راكب حماري وغنماتي قدامي، ولما وصلت الدار، شفت العجب.

يا عمي يعني لا تواخذني شو شفت؟!

يا ولدي... في غيابي عن الدار أجوا ولاد الحرام وبنوا سور عالي بين الدار وسقيفة الغنمات... الدار والمرة والولاد صاروا من السور وشرقه وأنا والسقيفة والغنمات صرنا من السور وغربه... ومنها لليوم وأنا بحاول أطلع تصريح إلي ولغنماتي وحماري حتى يجتمع شمل العيلة، وماهم راضيين يطلعوا تصريح، هذا جدار الموت مش جدار الفصل.

مظلوم يسمع كلام الحاج ولا يكاد يصدق ما يسمعه لولا أن الحاج لم يستطع السيطرة على نحيبه الذي علا صوته لما صدّق مظلوم كل ما سمع.

بس ليش ما أصدق! وشو بيختلف حالي عن حال هالختيار!! ما هَيْ أنا مش قادر أصل دار عمي ولا قادر أعرف من أخوي إشي وهالجدار مانعني متل ما هو مانع الختيار.

ابتعد مظلوم ووقف غير بعيد يقلب وجهه بين السماء والأرض والدموع ملاذه الأخير الذي يطفئ فيه شظايا قهره.

على كتفه تربّت يد بهدوء:

مظلوم... شو بتسوي هان يا بني؟!

قبل أن يلتفت يمسح دموعه، لكن هذا الصوت ليس بغريب عنه، كانت أذناه قد ألفته من قبل وكثيراً ما أطربها، يلتفت بسرعة ويصرخ:

عمي... عمي معذب... كيف وصلت هان؟! عمي وين أخوي محمد؟! يدير عمه وجهه ليخفي قسمات وجهه، لكن مظلوم يطارده بسؤاله:

يا عمي وين أخوي محمد؟ من يومين راح عندكم وما رجع، ما بتعرف عنو إشي؟!

يأخذ معذب ابن أخيه بين ذراعيه، وتنصب الدموع كشلال تحطم سده فهوى من علي يدكّ الأرض دكّاً.

وعلا نحيب معذب ومن بين نبرات بكائه تفرّ واحدة بنبأ عظيم.

لقد استشهد محمد يا ولدي!

تجمدت يدا مظلوم على عنق عمه، وحيرة عينيه تقذف بركاناً لاهباً من الدمع كان يغسل لحية عمه من غبار راكمته عواصف الأيام الموجعة.

بهدوء وصمت توجها معاً إلى سيارة مظلوم، وتحركا نحو

القرية، وقفا على أعتاب دار مفقود «أبي مظلوم» دون أن يشعرا كيف انطوت الطريق تحت عجلات سيارتهما طياً.

أم مظلوم تسمع صوت السيارة تقترب من باب الدار، فتقفز بسرعة لتقف على عتبة الباب فإذا بمظلوم وعمه ينزلان من السيارة بلا محمد، تنظر في عيونهما فتقرأ وصية محمد «لا تبكي عليّ يا يمّه».

فتغيب عن وعيها، يحملونها إلى داخل الدار، ويجتمع الجميع ليسمعوا من عمهم معذب كيف بدل محمد اسمه «بشهيد».

يا أولادي لا تبكوا عَ الشهيد، هو الحين عند ربه حي يرزق، لازم نبكي على أنفسنا وحياتنا المقهورة، وعلى كرامة أمتنا المهانة وأعراضنا المنتهكة... لكن بكاءهم يعلو ويعلو.

كان بطل والله... وقف في وجه الوحوش، وجبل الحديد بلدوزرهم الملعون الـ «٩٠» وقف قدامّه كالطود يدافع عن أرضه وحقه في الحياة وهو يردد:

إذا لم يكـن مـن الموت بد فمن العار أن تموت جباناً

تعالى عليهم مثل أشجار الزيتون رغم حقدهم، ما هاب الموت ولا القتل، وكلاليبهم تلتقفه وتسحبه تحت جرافة الموت ليختلط

لحمه بعظمه مع تراب الأرض وأغصان الزيتون، فرسم خريطة الوطن بمداد من الدم والزيت والطين... «وراح تظل صورته وذكراه ويزول جدار الفصل إلّي بنوه».

يقاطع مظلوم عمه:

لا.. لا يا عمي... اسمه مش جدار الفصل، اسمه جدار الموت زي ما سمّاه الحاج العجوز الحكيم إلّي تشردت عيلته شرق الجدار وغربه... صحيح إنو جدار القتل والدمار والموت... مش قتل أخوي شهيد؟!

مش انغرست وانزرعت أنياب جرافاتهم في نص جمجمته وارتوت من دمه... بس عظامه راح تظل تهز عمدانهم وأشباحهم حتى تتحطَّم وتهوي في قعر الماضي؛ ويظل شهيد بذكراه العطرة، وتظل فلسطين بقدسها وأقصاها نقش في جبين الزمن.

ولعنة تطارد كل الطغاة إلى يوم الدين.

شمس

إهداء إلى أم الأسير أشرف بعلوجي

ضياؤها يملأ الأفق، وخيوطها الذهبيّة اللامعة تتجلّى انعكاساتها على صفحات الوجوه، كل من نظر إليها أضاءت وجهه، وبدا قمراً منيراً تماماً، كالظاهرة الكونية المتمثلة فيما يحدث بين شمس الدنيا وأقمارها ترسل إشعاعاتها عليها فتنيرها لتزين السماء الدنيا، تصحو الحاجة شمس قبل أن يتنفس صبح حي الدرج في مدينة غزة، فتنثر ضياءها عن أيمانها وشمائلها، فتبعثر حبات الضياء المتلألئة في الرحاب الشاسع، فتصيب ما تصيب من البراعم، النابتة في حجرها والمترعرعة على عينها، فتدغدغ أجسامهم البريئة بدفئها، فتتفتح عيونهم كما الورود انحدرت عن لفائفها قطرات الندى، فتتثاءب لصبح تلفه شمس الأصيل الملقية عن قرصها عباءة الليل، فتبدو عارية تغتسل في بحر النهار الآخذ بالمدّ ليغطي وجه البسيطة، هكذا كان حنانها، بل أكثر من ذلك فقد كان حنوّ الحاجة شمس (أم الوليد)

على أولادها، وكل من خصته بلحظها، فكيف بنا إن كان الأمر متعلقاً بحبيب روحها وقرة عينها أشرف، الذي اختطفته الأيادي الآثمة لتلقي به رهين القيد والأسر، ترعرع على ساعديها وشب فتياً على عينها، فما اشتد عوده وقوي ساعده، ورأته وقد تمثل لها بشراً سوياً، وأخذت تباهي به الأقمار والنجوم السابحة في الفضاءات البعيدة، وعلى حين غفلة اختطف الشاب البهي وألقي به خلف حدود الزمان والمكان، هناك في كف الغدر الصهيونية، لتبدأ شمس برحلة العذاب الطويلة في البحث عنه بين الأسوار والأشياك وقلاع الأسر المنتشرة على بقاع شتى من أرض فلسطين المحتلة، دارت شمس دورتها، وتنقلت بإشعاعاتها بين محطة ومحطة، تلاحقه على مدار ثماني عشرة سنة، تذهب في أثره من سجن إلى سجن، تراه عندما يسمح لها بزيارته من قبل سجّانيه، فتنفخ روحها فيه فيحيا من جديد، وتلقي عليه الرضا وتنثر حوله حنانها، وفجأة يقطع السجّان حبل لقائهما ويباعد بين الأشباح لتبقى الأرواح على اتصال غير منقطع مهما تباعدت المسافات ومهما تعاقب الليل والنهار، وكلما توالدت السنون والشهور والأيام، ثمانية عشر رمضاناً لم تتزين مائدتنا بوجهك البهي يا أشرف.

كلمات قالتها الحاجة شمس على أثير محطة الأقصى التي تبث الأشواق لأسرى الحرية من غزة هاشم، لتكون حبل الوصال بين الأسرى وذويهم، خصوصاً بعدما أقدمت سلطات الاحتلال على منع الزيارات ولأسرى غزة على وجه التحديد، أهي كلماتك المملوءة شوقاً أمّاه؟ أم أنها بداية النهاية؟!

كان صباح يوم السبت الموافق ٢٣- ٩- ٢٠٠٧م غريباً قليلاً كأنه يعاني أعباء شيخوخة هدّها الدهر وأحنى هامتها كرّ السنين وتعاقبها، سبت هرم شائخ وقد انبلج فجره قبل حين، وما زالت شمسه تحبو على أكتاف التلال، لكنها ولدت ملفعة بثوب خسوف ينذر بديمومته ليدخل المعمورة في عتمة أبدية، فمن على خطوط الأثير الممتدة في فضاء فلسطين.

وبنبرات محطة الأقصى «هي نفسها التي تنقل الأشواق للأسرى» نقلت يوم السبت الأسود إلي وما حملته ثناياه من خسوف أصاب أمي شمس. فاحتلّت عتمة أبدية قلبي الموجوع الذي حاول مخادعة روحي، فأخذ يبث إليها بأن ما أصاب شمس كسوف لا خسوف، ولا بد منقشع عما قريب، فتتجلى شمس بكامل بهائها وجمالها وكأنها ولدت من رحم الضياء الساعة، إلا أن الأماني لا يمكن أن تسكن

أعماق الحقائق، والحقيقة أن النبأ كان عظيماً، فقد غربت شمسي الحبيبة، لتسكن جوف الغيب الأبدي، فبالرغم من الألم، ووجع قلبي الذي لا أظنه يزول أبداً، إلا أنني أقف إليك إجلالاً وإكباراً أماه على صبرك وجلدك، واحتمالك الأذى والقهر والحرمان في سبيل فكرة آمنت بها أنا، فآمنتِ وصدّقتِ أنتِ، ولهذا أسأل الله أن يتقبلك شهيدة من شهداء أرض الإسراء والمعراج، أرض الرباط، بعد ما سطرت صفحة خالدة من صفحات الصمود والثبات.

عيد ألعابه من حصى

كان حُجّاج بيت الله الحرام يصعدون جبل عرفات يهلّلون ويكبّرون ويلبّون بينما كانت شيماء وساجدة تمسكان بأطراف أمهما المعبق بروائح التوابل والبهارات المنتشرة في أجواء سوق رام الله.

تتبعانها عابرة بهن أمواج المتسوقين الذين ضاقت بهم أروقة السوق وأزقته، وفاضت بهم محاله التجارية التي ألقت ما في بطنها لتعترض أبصارهم فتسلبها زينتها وتستهوي أفئدتهم خاطبة دراهمهم وأموالهم.

خرجت تهاني من بيتها بصغيرتيها لأول مرة بعد غياب زوجها هاشم منذ أربعين يوماً وليلة، ولولا الضرورة لما خرجت ولفضلت الانشغال وقتل الوقت بين حاجاته تبحث وتفتش بين ثناياها عن رائحة تستنشقها وتغذي بها الذكريات لتبقى حيه على مدار الساعات واللحظات.

كان العيد اليتيم الأول الذي يمر على هذا البيت الذي فقد

والده وربه فأجبرتها الضرورة أن تخرج بصغيرتيها لتعمر صدورهما الطفولية بالفرح والسرور عبر ألبسة العيد وألعابه.

تنقلت بهما بين المحال المزينة بألوان العيد والناثرة أريجها في سمائه، كستهما بحلل باهظة الثمن وأغدقت عليهما من ألعابه حتى رضوا وابتاعوا من الحلوى وألوان الأطعمة ما يكفيهنّ أيام العيد الأربعة، ثم ركبن الغروب عائدات، قبل أن يسقط الليل كسفه المعتمة، فما أن دلفن عتبة الدار حتى تصايح الصغار (وعد ياسر أسماء) وتسابقوا نحو الأكياس واللفائف المحمولة في السلاسل ويحيى الرضيع يحبو في ذيلهم.

حاولت الأم المتعبة تهدئتهم بقولها: «كل واحد له كسوته وألعابه فاصبروا حتى نلتقط أنفاسنا».

لكن الصغير لا يفهم لغة الانتظار ولا يفقه فلسفة التأني في طلب حاجته، وإن واجه عائقاً في سبيل هذا سل سيف البكاء حتى ينال مراده، يئست من ردعهم فراحوا ينهشون الأكياس من كل جانب ما كان لها من حول ولا قوة عليهم.

فاستسلمت لهم ملقية إليهم بالهدايا والألعاب فانفضوا من حولها كل يحضن لعبته وكسوته.

تركتهم وشأنهم وراحت تحلق ببصرها في جنبات البيت وتنفث آهاتها متمتمة بحديث النفس فتفلت من بين شفتيها الكلمات تشفّ عما يدور في خلدها، الله على أيامك يا هاشم تركتنا لوحشة الأيام وغربة الزمان الله المعين يا ترى في أي أرض أنت؟ أو في أي سماء؟ يا شقيق الروح هلا تعود؟ فأفرح بعودتك فرح الصغير بعيده.

عادت من شرودها وقد هجع الصغار وسكنت أجسادهم لتبقى شفاههم باسمة تشي بالرضا التام عن أمهم التي جلبت إليهم كل ما يحتاجه العيد كتذكرة دعوة لكل من يريد اللعب في رحابه.

صمت البيت بنوم الصغار الذين احتضنوا لعبهم، شيماء ظلت تغازل المرآة بفستانها الجديد، وتعرض جسدها الطري على صفحتها تلائمه والفستان وبينما هي منشغلة بطفولتها فاجأتها أصابع أمها تنساب من جدائل شعرها المتعرجة، ثم لثمتها بقبلة دافئة أودعتها الفراش وجلست تدندن عند رأسها:

نامي يا عروسة العيد.

نامي يا زهرة العيد.

شيماء يا أحلى نجمة.

نامي يا.....

وقبل أن تكمل ترتيلتها الأخيرة الملحنة بسكون الليل قطعتها همسة خجولة انزلقت من ثغر شيماء المتورد (العيد بيجيب أبوي معاه الصبح يمه) همسة هيجت في جوف أمها الليالي الخوالي بأحمالها حتى خنقتها الدمعات فلم تقو على النطق بالجواب، فأرسلت يدها تربّت على ظهرها حتى أخذها النوم بأحلامه ذهبت شيماء مع أحلامها بينما تهاني قامت لتقف أمام النافذة الغربية المطلة على الفضاءات الشاسعة فأرسلت بصرها مع الليل تفتش ظلماته المتراكمة بعضها فوق بعض عن طيفه الذي اختفى منذ زمن فيخيل لها وجهه المستدير وثغره الضحوك متجلياً يضيء كالنجمات في أبراجها فتناديه بلهفة روحها ونبض قلبها، ثم تراه يختفي مع وميض الشهب الساقطة من السماء إلى الأرض لكنها لا تأبه بذلك فتعيد المحاولة، تدقق النظر، تطلق عنان البصر فيتيه بين سحب الظلام ولا يعود عليها إلا بلون السراب فيصيبها الجهد والإرهاق فتلقي جثتها في فم النوم ليرحل بها عن دنيا البشر، يحطّ بها في دنيا الأحلام لعلها تلتقيه هناك بعيداً عن كل العيون.

أخذها النوم في رحلة إلى أعماق لم تدر زمانها ولا تعداد ساعاتها حتى قذف بها لما ضج الليل من حولها وتحول بسكونه

ضوضاء عارمة قرقعة حديد يصطكّ بعضه ببعض وجلبة أقدام قوية من حول البيت.

انسلت من فراشها بهدوء الخائف الحذر والفزع يتملّكها، اقتربت من الحائط، مدت يدها فأدارت مفتاح الكهرباء، فما أن أضاء البيت حتى فتحت مكبرات الصوت أبواقها تنادي بلكنة خليطة بين العربية والعبرية (اطلع من البيت، نص ساعة، سنهدم البيت، هناك قرار هدم).

صكـت وجهها، عبـس وانعقد جبينها، جحظـت عيناها في محاجرها، رجلاها ترتجفان ارتجافه الجذع في يوم عاصف.

جلست خلف الباب تسترق السمع وتتبيّن الأمر لعلها تلتقط كلمة واحدة، أو اسما يذكر لتعرف من هؤلاء التعساء الذين حلت بهم مصيبة المصائب.

وما هي إلا لحظات حتى قطعت مكبرات الصوت وجومها وحيرتها، والتفّت عليها صاعقة من محكمة الظلام.

أولاد هاشم طارق أخرج من البيت، زوج هاشم يلا أخرج من البيت بدنا نهدم، هاشم مخرب كبير.

سمعت النداءات تتوالى وهي بين مصدق ومكذب، لكن اسمه كان واضحاً «هاشم.. بيت هاشم.. طارق ابني».

فهذا يؤكد أن بيتها هو المستهدف وجاؤوا ليفعلوا فعلتهم ولا مناص.

إذ لا يستطيع أحد في هذا الوجود اليوم أن يوقف بطشهم وعربدتهم، إنهم يهود.

مرة أخرى نادتها مكبرات الصوت نصف ساعة ونبدأ الهدم أدركت تهاني أن الوقت ينفد ولا مجال للتفكير. فقد حلت بنا كارثة وليس لها إلا الله.

وبينما هي في ذهولها وجنونها، وقبل أن تقف على قدميها؛ كانت أصوات أقاربها وأناس من أهل الحي جاؤوا ينظرون الخبر، فلما وقفوا على حقيقة الأمر، وسمعوا الإنذار الأخير؛ تدافعوا يطرقون الأبواب والنوافذ، قامت فأدخلت رأسها في ملاءته وما أن فتحت الباب حتى تدافع النسوة والرجال، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أثاث البيت وأشيائه.

أما هي فلم تكترث بشيء وكان أكبر همها أن تلتقف الصغار

قبل أن تغتالهم حبات الموت التي تقذفها القنابل والمتفجرات أو تلتهمهم ألسنة الجرافات.

بدأت تهاني تنقل صغارها وهم يغطون في نومهم الحالم بالعيد وتفترش لهم الأرض على مسافة ليست بعيدة من البيت. مسافة تقيهم خطر الأحجار التي ستتطاير في الهواء بعد قليل.

وما هي إلا دقائق حتى عم المكان انفجار هائل تطايرت على أثره حجارة البيت في كل اتجاه؛ وذلك بعدما حشوه بأرطال المتفجرات وما بقي منه صامداً كان طعاماً لجرافاتهم فالتهمته حتى أتت على أنقاضه.

كان صوت الانفجار كالرعد المدوي بين طبقات الجو فما ترك لنائم حلمه ولا غافل في غفلته حتى الرضع في أمهدتهم كل من سكن ذلك الحي من إنس وجن ويابس ورطب.

كلٌّ اهتز اهتزازة كأن الأرض حركها زلزال أو نفخ في جوفها بركان.

كان صوت الانفجار أقوى من جفون شيماء الغافية فهز مسمعها فتفتحت عيناها الناعستين والابتسامة صاحَبتْ ثغرها الرطب بألعاب الطفولة.

ظنَّت أن الصوت المدوّي صوت العيد، جاء مكبّراً ومهللاً يناديها لتزينه ببراءتها وطفولتها الجميلة وما زادها دهشة واستغراباً جموع النسوة التي أحاطت بأمها وهذا الضجيج الذي ملأ المكان وكيف أصبحت في العراء؟! وأين إخوتها؟ ولماذا اجتمع كل هؤلاء الناس ولما ينسلخ الليل من النهار تماماً؟

تقدمت بخطوات متأرجحة تفرك عينيها حتى أمسكت بطرف أمها فلم تلتفت إليها فقد هالها ما حل ببيتها.

فشدّت طرفها نحوها بقوة، فأحست بها، فاحتضنت رأسها براحة يدها وألصقتها بجسدها وعلى يدها الأخرى الرضيع يحيى، الذي كان يلتقط الدمعات الهاطلة من عيونها فيطفئ جوعه وعطشه.

رفعت شيماء عينيها وسألت:

ـ أجا العيد يمه؟

فردت الأم بحدة المقهور:

ـ آه يمه أجا العيد!

ـ آه معاه هداياه!

ثم غرقت في نحيبها، شعرت شيماء بجفاف الجواب فحرّرت

طرفها من يدها وراحت تبحث عن أخيها طارق، لعله يشفي غليلها ويعطيها تفسيراً لما يجري من حولها.

كان طارق الابن البكر لهاشم وابن الربيع الثاني عشر يقف بين ثلة من الصبية والرجال وقد تجمعوا من حول أكوام الدمار والركام التي آل إليها بيت هاشم، وكانوا يشيرون بأصابعهم نحو أرتال الدبابات والجرافات التي بدأت رحيلها بين أسراب الجنود الصهاينة بعدما فعلوا فعلتهم النكراء، وأضافوا جريمة جديدة من جرائمهم في سجلهم الطويل المملوء قذارة وقبحاً وصلفاً.

كان فجر العيد قد انبلج ووضع صبحه المغسول في حمام البرد القارس من أيام تشرين ٢٠٠٣م عيد صبحه يرتجف تحت ضربات البرد كما أنّ طارقاً كان يرتجف من هول المصاب.

تقدمت شيماء تقودها خطوط الضوء المتشابكة والمتأرجحة مع الهواء حتى لامست أصابعها، أصابع طارق، فتعانقت الأصابع البريئة الطاهرة وتبادلت العيون نظرات الحسرة والأسى.

شاهدت شيماء الدمار الذي حل ببيتهم الصغير وعشهم الأنيس وكيف صار كومة من حجارة، فتسابقت دمعاتها لتختلط بتراب الأرض، ثم سألت طارق:

ليش هدوا دارنا؟

أجابها طارق على الفور:

لأن أبانا بطل.

وبينما هما في عناق من القهر والحرمان فإذا صوت المآذن يعلو صداه ويصدح مع نور الصباح، الذي ملأ الدنيا.

بدأت المساجد تلبي وتهلل فرحاً بالعيد؛ فانفض الناس، وتفرّقت الجموع من مكان الجريمة، ليلحقوا بالعيد، وبدأت الشوارع تموج بأمواج الناس والمصلين، وراح الصبية يتصايحون فرحاً وطرباً كلٌ يختال بملبسه ويفخر بلعبته.

لتبقى شيماء مع إخوتها يقلبون الحجارة والحصى بحثاً عن ألعابهم وكسوتهم التي لم يمنعها صلف المحتل أن تسكنها أجساد البراعم الندية.

كانت الأم تهاني الصابرة المحتسبة ترقب فعل صغارها؛ وترى شحوب وجوههم التي سكنها الرعب والخوف وعيونهم التي استوطنها الفزع بعدما هجرها الفرح وفقد فيها الحلم في مهده.

نظرت إليهم وقالت: رغم رائحة الدمار التي يفوح بها هذا العيد، لا تبكوا يا أحبتي.. العبوا بالحصى، استروا أجسادكم بعجاج الأرض وغبارها.

ثم قالت: فداك الدنيا وما فيها يا هاشم.

إهداء إلى:

الأسير البطل هاشم أحمد الصوص[1] وزوجته الصابرة المحتسبة «تهاني أم طارق» وإلى جميع أولاده وبناته الصابرين.

(١) اعتقل هاشم عام ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٣ ولد في بلدته أبو شخيدم ـ رام الله بتاريخ ١٧/ ٧/ ١٩٦٦م، حكم عليه في المحكمة الصهيونية بالمؤبد أربع مرات (٤٠٠)سنة يقبع الآن في سجن نفحة الصحراوي.

قلب الأم لا يكذب

إهداء إلى أم سلمان التي صبرت على فراق أحبتها وما زالت تعاني ألم غربتهم في سجون الاحتلال الصهيوني.

إن حاسة الأم السادسة أو ما يسمى (بالحدس) أو (بحدس الأم) من الأمور التي تؤمن بها الأم إيماناً لا مواربة فيه وتؤمن بأنها اختصت بهذه الحاسة التي لا تخطئ ولا تخذلها أبداً ولا سيما عندما يكون هذا الإحساس تجاه أولادها فعندما تشعر الأم بضيق في نفسها أو انقباض في صدرها فتعبر عن ذلك بقولها (الله يستر حاسة قلبي بدو يقفز من مكانه) فتتنغص وتظل ثائرة منتبهة، ترقب كل من يهمها أمره خشية أن يصيبهم مكروه أو يتغشاهم هم وغم، وفى حالة عكسية ترى وجهها مشرقاً يتفجر منه النور فتسألها ما السبب؟

فتقول: أشعر أن قلبي سيطير من الفرح وصدري منشرح ينبئ بخير آت.

إذن هما حالتان متناقضتان لقلب يبصر الأشياء من خلف حجب الغيب.

يفرح تارة ويفزع أخرى، والفرح والفزع كأنهما جناحان ملتصقان يمين القلب ويساره، وهذا القلب متصل (عن طريق موجات كهرومغناطيسية تصدرها نبضاته الناجمة عن عملية ضخ الدم المتدفق إليه عبر الشرايين المتشعبة في أنحاء الجسم) بكل قطعة انفصلت عنه لتشكل قلباً صغيراً له كيانه ومسيرة حياته ومهما تعددت هذه القلوب الصغيرة ومهما مضى من زمن على انفصالها فإن القلب الكبير (قلب الأم) يبقى على اتصال قوي متين مع كل هذه القلوب الصغيرة.

وقد نلحظ بعض التفاوت بنسبة هذا الاتصال وقوته بين القلب الكبير وعلاقته بأحد هذه القلوب.

إلا أن هذا التفاوت يكون وليد ظروف معينة ومرتهناً بمناسبات محددة.. ما إن تزول حتى ترجع العلاقة قوية متينة؛ لأن القلب الكبير لا يمكن أن ينسلخ عن سماته وتركيبته المجبولة بماء الرحمة والشفقة.

وخلاصة هذا الارتباط الوثيق فإن الأم لا تكاد تلفظ كلمة (قلبي منقبض)، (أو قلبي ناقزنى) حتى يقع المحظور في أغلب

الأحيان وما تكاد تلفظ كلمة (قلبي فرحان) أو (صدري منشرح) حتى يتشقق الأفق ضاحكاً من حولها.

وما كان محمد من أمه إلا قلباً صغيراً انفصل عن أصله ليكون هذا المخلوق الذي شب وصنع على عينها حتى اكتملت مراحله فتشكل بدراً ينبعث النور من جوانبه وكلما دار دورته ملأ جنبات البيت مرحاً وسعادة.

ولا يخرج عن مجراه حتى يعود ولا يكاد يغيب خلف الأفق أو تستره غيمة عابرة حتى يطل ثانيةً.

وأمه بين هذا وذاك تتعقبه وتتابع حركته وتجعل راداراتها متأهبة على مدار الساعة.

وبالرغم من ذلك الحرص كله وفى يوم كانت سحبه سوداء مثقلة، خرج محمد في دورته، فغاب خلفها ولما انقشع ليل السحب، وانجلى أمرها لم يظهر محمد لعينها لا على أرض ولا في سماء.

قبل خروجه أحست بانقباضة كادت تخنقها فعرفت أن أمراً جللاً وعلى غير ما تحب وترضى واقع لا محالة، فصكت وجهها وانكمشت جالسة بجانب الباب الخارجي للبيت، وراحت تحدق بعينيها اللتين سكنهما الخوف وتقلبهما في السماء والأرض حتى جاءها النذير

فألقى عليها الفاجعة لتخر جاثية على ركبتيها، وقد التصق جبينها بخد الأرض بقيت ساعة منكبه على الأرض ثم رفعت رأسها ففتر ثغرها عن آهة وجعاً ثم نطقت قائلة: (عمر قلبي ما كذبني)... (كنت حاسة إنو اليوم ما راح يمضي على خير) حسبنا الله ونعم الوكيل.. الله على الظالمين.

أغلقت السلاسل على معصمي محمد وألبست عينيه قطعة من صوف خشن، وجرته الأيادي الغاشمة حيث حفر الموت المحاطة بالأسوار العاتية والأسلاك المستديرة المتشابكة، ومارسوا عليه صنوف العذاب وألوانه قبل أن يحكموا عليه بالسجن، وليغيبوه عن فلكه ومجرته التي نشأ فيها تاركاً خلفه قلبها يتقطع ألماً ويتفتّت حسرةً وكمداً.

كيف لا؟ وهي التي افتقدت ثلاثة قلوب صغيرة سرقت من حجرها في وضح النهار (سرق القلب همام والقلب سلمان ليلحق بهم القلب محمد) كلهم سرقوا على يد سارق لعين يتمترس خلف قناع صلفه.

ويلتحف بسروال عنجهيته المتعفن، لقد سرقوها بسطوة الظلم لا عن وهن منها وضعف أو غفلة عين وإطباقة طرف.. سرقوها بمنطق الرصاصة والقنبلة، لا بمنطق اللثام والليل كما علمنا السرّاق

على مدار الأزمنة والدهور... سرقوها بفكر لا يشابه فكر السارقين ولا أخلاقهم... بل بفكر العربدة والاضطهاد والطغيان، بفكر المحتل الغاصب، الذي لا يتمثل أعرافاً ولا يشتمل أخلاقاً، مما يجعل التعامل أو التفاهم مع هؤلاء السارقين ضرباً من المستحيل أو شيئاً من الجنون غير المعهود.

وأمام هذا الواقع المرير المنكر، ما كان لأم سليمان إلا أن ترفع يديها إلى بارئها شاكية اللئام الذين لا يرعوون ولا ينتهون عن فعلهم المشين والذين قست قلوبهم فكانت أشد من الحجارة قسوة وحلت عليهم لعنة السماء فباتوا مثل إبليس، مطروداً من رحاب الرحمة، ليس له نصيب من جنة الغيب، فعاث فساداً في الأرض يمتع جشعه ويتلذذ على أكتاف أيام لا محالة زائلة، يوم باق... أمر الله.

إن صهاينة اليوم يتلذذون على آهات أم سليمان ومثيلاتها، ويشربون الأنخاب ويقرعون الكؤوس على آلام القلوب الصغيرة التي يخطفونها من أحضان جنانها الوادعة ويقطفونها من حاضرها ومستقبلها.

متناسين أن الأيام دول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ وأن يسرها قليل، وعسرها كثير. وما هي إلا جولة

مـن جولات الحـق حتى ينقلب قـدر الزمان فيسـكب حممه لتذيب صنـم الظلم، وتغرق القهـر وأهله في أتون شـرها وصلفها، وتجتث أشـجار العوسـج والغرقـد مـن جذورها وتنبـت الخمائـل من بطن الأرض وتنفجر عيون النور والهداية فتطمس نيازك وشهب السارقين وتحيلها رماداً.

كانت أم سلمان تتجرع الألم بألوانه؛ وتتقلب الليل الطويل على جذوة الشوق، وتهب مع كل فجر تسابق خيط السماء الأزرق لتجلس أمام بيتها فتطلق العنان لبصرها يخترق الأفق، ويفتش بين طبقات الفضاء عن طيف يزورها خلسة أو هدهد يأتيها من بلد النسيان بكتاب فيلقيه إليها فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من قلبك الصغير المدفون في حفرة الموت الموسومة بالرقم «١٨» الرابضة على صدر أرض الآباء والأجداد عسقلان، إلى القلب الكبير الذي عَلم عِلم اليقين أنه يعتصر ألماً، ويطلق الزفرات والآهات على فراقي الذي لم أخطط له يوماً، ولم أرسم له خطوطاً لا بالطول ولا بالعرض بل فراق المكره المجبر.

ولو كان لي من الأمر شأن لأتيتك زاحفاً على جمر الشوق متنفساً لهب الحب الأموميّ حتى أجثو بين يديك.

وبينا تستمع إليه يتلو عليها كتابه يتدلى سربال الليل المزركش ببقع الضوء المتموجة والتي سمّتها السماء نجوماً وكواكب فتنقطع خيالات ريشتها المتمرسة مع الأيام في رسم أجمل عبارات الشوق... فتنسل من بين خيوط العتمة آوية إلى مخدعها تبثّ بين ثناياه أحزانها وتجترّ لوعتها حتى ترتخي أهدابها، وتطبق الرموش المتدلية على الرموش المنتصبة فتنغلق حدقة العين المثقلة بالآلام والآمال، فتنطلق في رحلة نوم بيضاء كأنها ليلة ولدت من رحم ليلة قدر رمضانية، منثور في سمائها ثريات مدلاة تتأرجح يمنة ويسرة فيرقص شعاعها في حركة خيل إليها أن سهامه تنقش أسماء قلوبها المسروقة على صدر تلك الليلة الناهد.

وعلى جوانبها أسدلت شراشف بيضاء يهزها نسيم ليل عليل فتنسج ثوب عروس زفتها شموس وأقمار ونجوم في ليلة خارجة عن مألوف البشر، شراشف تتموج وتتهادى كأنّ في خباياها ملائكة السماء هبطت تناصر القلوب المفجوعة، وتهدهد بألطافها على أرواح سليبة وتوحي إليها: إن الغد القريب سيلقي حمله الجميل رغم عمليات الاستئصال الممنهجة التي تنفذها قوى البشر، ومن بين تلك الشراشف يطل عليها بشير يضيء وجهه إضاءة القمر ليلة تمامه يحمل

على ذراعيه طيف قلبها الصغير ـ محمد ـ فتراه مقبلاً إليها باسم الثغر، مع مسحة حزن تعلو صباحه فتلقفته بين أحضانها.

نهضت من نومها وما زال حضنها دافئاً بأنفاسه مفعماً برائحته، وقلبها الكبير يرسل خفقاته تترى محفوفة بسرور ينبئ عن أمل جريء قادم من خلف الغيب متحدياً كل إمكانات البشر.

على غير عادتها، تثاقلت أم سلمان في فراشها، حتى اقتحمت الشمس عليها مخدعها. فقلبت جسدها على وخز سهامها، ومددت رجليها أسفل ما تستطيع، بينما كانت يداها تتشابكان وتذهبان فوق رأسها، حتى لاحظت أنّ طولها تضاعف مرّة ونصف المرّة ثم انكمشت فجأة، فصنعت من جسدها كرة وقالت: لو تدحرجت لما وقفت إلا على سقف المدينة التحتي.. ثم ضحكت مع نفسها وخاطبتها: من أين لك هذه الدعابة أيتها المرأة المسروقة؟ وكيف تضحكين وقلبك غريق في بحر المجهول؟ أم أنه (حدسك) أنبأك بما يجهل العالم من حولك؟!وإن كان هذا حقيقة؟ فيا له من قلب كبير في ذاته، كبير في أحلامه، كبير في حبه وفى كل شيء كبير.

استمرت تداعب نفسها وتلاعب روحها ساعة ثم وثبت من فراشها وثبة المفترس، وألقت من خلف زجاج النافذة نظرة على

الدنيا فشاهدتها هي الأخرى على غير سيرتها الأولى وكأنها تجهزت لأمر عظيم، يداهمها عما قريب فما أرادت أن يجيبها على حين غرة وقد هدّها الظلم وأجهد أيامها قهر المحتل.

تجلس ذاك اليوم في مجلسها الذي اعتادته. ولم تعد الطيور الغادية والرائحة، ولم تركب السحب البيضاء السابحة في سماء المدينة، ولم تنتظر شتاءً يضع حملاً خفيفاً أو ثقيلاً.

لم تجلس في مقعدها البتة حتى أثارت من حولها سؤالاً على ألسنة من تعودوا جلوسها هناك وحفظوا برنامجها ووجومها وفرحها وعبوسها، عرفوا كل شيء يتعلق بها إلا ما كان يخفي قلبها ولم تشفّ عنه الأيام بعد... فتساءلوا: هل يئس هذا القلب وملّ الانتظار؟ أم أنه هرم وأعجزته السنين والآلام عن مواصلة ما اعتاد عليه من ترقب وانتظار؟! أم اخترق ستار الغيب فكشف له ما وراء المجهول.

لم تعبأ بالنظرات التي انهالت عليها من كل جانب، وراحت تدندن مع روحها، ومكانها ترسل أشواقها وباقات من حنينها إلى قلوبها الصغيرة المسروقة.

وقطعت الساعات وهي على هذه الحال حتى انحدرت الشمس

عن عين السماء، وهبت ريح هفهافة من ناحية الغرب فجعلت من آخر يومها قطعة من ربيع مغسول بقطر الندى تفوح من نواحيه رائحة العشب المزكى بعبق الزهور البرية، بعدما كان نصفه الأول قطعة موت من صيف لاهب، شمسه تشوي الطير في جو السماء.

لفحتها ريح شفيفة، فدغدغت نسائمها ثوب لحمها وعظمها فانتعشت روحها، وتملكها شعور ملأ عيونها بالفرح، وافتر ثغرها عن ابتسامات غير منقطعة، ودب في أوصالها نشاط عجيب، فقامت من فورها. فاحتضنت وعاء العجين، فملأته دقيقاً، وصبت عليه الماء الدافئ ثم غرست أصابعها تعجنه وتقلبه بين راحتيها وهي شاردة الذهن.

وقبل أن يصبح عجيناً خالصاً؛ وعلى حين غفلة منها، لثمت عيونها راحتان باردتان جاءتاها من وراء فحطتا على صفحة وجهها فحجبتا البصر، وبقيت بصيرتها حرة طليقة فدفعت دقات قلبها فتسارعت، وطافت من حولها دوائر أنفاس فما إن انسكبت في جوفها وخالطت أنفاسها حتى صاحت: محمد.. محمد... ابني محمد...ولدي.

ففاضت العين بمائها، والتهم ثغرها وجنتيه وأغرقته حنيناً فأطفأ حريق الغربة المتوقد منذ سنين.

إهداء إلى أم سلمان التي صبرت على فراق أحبتها وما زالت تعاني ألم غربتهم في سجون الاحتلال الصهيوني.

لماذا تركته يرحل؟
إهداء لزوجة الشهيد موسى غنيمات أم عبد القادر

كنت أنتظر يوماً جديداً في زنزانتي بعدما ألقي القبض عليّ على يد مجموعات الأمن الوقائي الفلسطيني التابعة للسلطة الفلسطينية بقيادة جبريل الرجوب آنذاك وكان ذلك منتصف ليلة ١١/ ٤/ ١٩٩٧م بعد الكشف عن خلية صوريف المجاهدة التابعة لكتائب القسام ـ الجهاز العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس ـ وزجوا بنا في سجن المقاطعة في مدينة خليل الرحمن.

كانت شمس الربيع تشق سماءها نحو أفق جديد، وتقبّل قمم الجبال فتذيب الصقيع وتبعثر حبات الندى بأشعتها، كان المشهد حتماً ساحراً لمن يشاهده ويتأمله بعيون متفكرة، وهو يرتسم على صفحة صبح من صفحات دنيا البشر، وأنا أرقد مع رفيقي دربي، عبد الرحمن وإبراهيم غنيمات رهن القيد في زنزانتنا المعتمة القاتمة اللون المنزوية في إحدى زوايا سجن المقاطعة، كان ذلك الصبح يتنفس

عبقاً لم أعهده من قبل، يتنفس عبق الشهادة والاستشهاد ويلبس حلة الوفاء، وما أن أخذت أقدام الشرطة تصدر ضجيجها ببساطيرها القذرة موحية بعودة يوم آخر من العذابات والقهر والعربدات، الأمر الذي طرد السهاد من عينيّ المتعبتين، الباحثتين عن حفنة نوم في جنبات الليل البهيم، أو إغفاءة رمش في ساعة من ساعاته، وهي بضاعة نادرة فأينما صودرت الحرية صودر وفقد كل شيء.

قرقعت المفاتيح في يد السجان، ثم راحت بفعل فاعل تعانق بأذيالها فتحات الأبواب.. عناق الحب الأخير، فتلد زنازينها توائم الرجال فيخرجون زرافات ووحداناً يزحفون على أقدام هدّها طول الوقوف القسري، وأتعبتها جلسة القرفصاء الجبرية، لضيق المكان يزحفون لا يحبون، رؤوسهم حليقة عليهم سراويل نهشتها السياط وأسلاك الحديد، وما أدراك ما أسلاك الحديد! (هي هي نفسها التي يستعملها البنّاء لشد وربط أخشاب الطوبار) كانت أياديهم وأرجلهم تربط بها ثم تعلق الأجساد في سقف الزنزانة أو وسط الممر مهبطاً للركلات ومرتعاً للبساطير الغادية والرائحة، ... يخرج من في بطنها يساقون إلى غرف التحقيق فتبدأ هناك الانتهاكات والعذابات فيضج المبنى الضخم بالصرخات التي تلين من هولها الحجارة وتبقى قلوب

السجانين الملعونة داخل أجسادها أقسى من أي جماد في هذا الوجود.

من بين هذه المشاهد يخرج عليّ سجان ليبلغني بأن لي زيارة من أحد الأقارب.. قلت: أفي هذا الوقت؟! قال: نعم، هيا حرّك حالك بسرعة!

على عجلة من أمري وضعت شبشباً في قدمي ثم تبعته حتى وصلنا أحد المكاتب المجاورة للزنازين (حيث كانت تتم هناك زيارات ومقابلة الأسرى لذويهم في حال سماحها من قبل السجّان وذلك عندما يكون شاغراً أو في استراحة من معارك التحقيق المعهودة)، تركني على باب المكتب المفتوح على مصراعيه وانصرف.

ألقيت نظرة خاطفة إلى الداخل فإذا بامرأة وولدين صغيرين يجلسون على كراسٍ حديدية تتوسّطها طاولة خشبية كبيرة، فما أن زلفت قدمي الباب ملقياً التحية حتى ألقت سؤالها سابقاً تحيتها: كيف تركته يرحل يا جمال؟!

سقطت كلماتها كأنها السكين على عنقي؛ وخيّل لي أنها نثرت حجرها لتجمع قطرات دمي، لكن الدم تجمد في مساربه، وظللت واجماً. ما نبست ببنت شفة، شاحب الوجه ومتصلب الأطراف مغروساً كالوتد دقته مطرقة المفاجأة، وغاصت قدماي في بطن موقف

لم أحسب حسابه من قبل؛ ولم يسبق أن خطر لي ببال. وشخصت عيناي وصرت كالشاة بين يدي سلاخها إن هي استغاثت استغثت أنا، وإن هي ضرتها سكين المذبح الفارق بين جلدها ولحمها ضرني أنا شيء.

بعد سؤالها... أم عبد القادر أهلاً وسهلاً.. فأعادت سؤالها عليّ: كيف تركته يرحل دونكم؟ نحن لم نخطط لذلك.. أقسم لكِ أن العملية لم تكن استشهادية.

كيف إذاً حصل ما حصل؟ ما الذي جرى؟ وكيف استشهد موسى؟ هل لك أن تخبرني؟

اجلسي أختاه، سأروي لك القصة من أولها حتى يوم رحيله، قالت: أنا في شغف شديد، وكلي آذان صاغية!

قالتها والدموع قد اندفعت من محاجرها، وأخذت تتابع منهمرة كاللظى ينبعث من فوهة تنوره المتأجج!

هوني عليكِ أختاه، إنه شهيد بإذن الله.

رحت أقص عليها قصته مع القسام وهي مشدودة مصغية لا يرف لها رمش، ولا يهتزّ لها طرف، كنت أسرد عليها حكايته وبين

الفينة والأخرى أسترق النظر فأراها تحلّق في السماء كأنها تناديه بأنفاسها المتصاعدة وتباركه بنظرات الفخر والاعتزاز.

أحيطك علماً بأن موسى وقبل التحاقه بجهاز عز الدين القسام (الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس) عام ١٩٩٦م كان قد التحق بالدعوة وانضم لصفوف حماس منذ انطلاقة الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م، وكان أحد أعضاء مجموعتي آنذاك، شاركنا كل الفعاليات والنشاطات الجهادية والسياسية والاجتماعية والدعوية، وبعد أن تم اعتقالنا على يد الصهاينة في نهايات عام ١٩٩٢ والتحقيق معنا في معتقل الظاهرية (جنوب مدينة الخليل) ووقعت اتفاقية أوسلو والتي بموجبها دخل ياسر عرفات ورجاله غزة وأريحا... بعد هذه الحقبة الزمنية انحصرت الفعاليات في بعض الأمور القليلة مما أدى إلى فتور المقاومة، وفتور همم بعض الشباب وكان الشهيد موسى رحمه الله كغيره من الشباب، فانخرط في عمله الذي تعرفينه في مدينة عيون قارة المحتلة عام ١٩٤٨م والمعروفة اليوم باسم ريشيون ليتسيون، وفي المقابل كنت قد التحقت بالجهاز العسكري للحركة وقمنا أنا وعبد الرحمن بإنشاء الخلية العسكرية ولما كان هدفنا الأول هو خطف الجنود الصهاينة لإجراء عملية (صفقة) تبادل أسرى مع

الجانب الصهيوني، ولهذا الهدف أدركت أن الشهيد تتوافر فيه العديد من المواصفات التي تتطلبها مثل هذه العمليات فكان لا بد من ضمه للمجموعة، فبالإضافة لورعه وتقواه ودماثة خلقه وسكوته الناطق من خلف نظراته الثاقبة فقد توافرت فيه سمات ومواصفات وقدرات جسمية وعقلية، أضف إلى ذلك كله سحنته الشرق آسيوية والتي قد تساعد في عملية التمويه على العدو وتسهل علينا التنقل بحرية عبر الجغرافيا التي ستكون مسرحاً لعملياتنا من شمال فلسطين حتى جنوبها، ناهيك عن لسانه المتحدث بلغة العدو بمهارة مما يؤمن لنا اختراق المجتمع الصهيوني لذلك توجهت إليه عصر يوم في منتصف عام ١٩٩٦م، بعد خروجنا من المسجد العمري (المسجد الكبير) وسط البلدة صوريف، وقلت له: الواجب الديني والوطني يناديك يا موسى، ردّ دون نقاش: لبيك.. لبيك.

قلت ضاحكاً: شريطة ألّا تطلب الشهادة قبلنا، فردّ متبسماً: هذا في خمس لا يعلمهن إلا الله، والله يصطفي من عباده ويختار، ثم تابعت قائلاً: غداً الثلاثاء انتظر في ساعة الغروب أول طريق الدير الواقعة في الجهة الغربية للبلدة سيكون لنا أول مشوار في عملية استكشافية وسنتحدث في الطريق عن التفاصيل... وبالفعل بدأ منذ

ذلـك الحين مشـواره مع القسـام وشـاركنا فـي عمليـات عدة من أشـهرها عمليـة خطـف الجنـدي شـارون أدري من أمام معسـكر للجيش الإسـرائيلي قـرب مدينة تل أبيب المحتلـة.... وكان ذلك في تمام السـاعة التاسـعة ليلاً من مساء يوم ٩/ ٩/ ١٩٩٦م وقد تم قتلـه بعدها لظروف أحاطت بالمجموعة وبقيت جثته محفوظة في تراب البلدة حتى تم تسـليمها لليهود من قبل جبريل الرجوب دون مقابل وذلك بعد سبعة أشهر من اختطافها.

وظل موسى يتنقل معنا من محطة إلى محطة؛ ومن وقعة إلى أخرى حتى كان قرار الجهاز العسكري القاضي بتنفيذ عملية تفجيرية بجهاز تحكم عن بعد، وكان الاختيار قد وقع على مجموعتنا للقيام بهذه المهمة.

بالفعل وصلتنا العبوات الناسفة عن طريق الشهيد القسامي البطل عادل عوض الله، وتم تدريب المجموعة على طريقة العمل وكيفية التفجير.

بدأنا أنا وموسى ورائد أبو حمدية بعمليات استكشاف لعدة مواقع يمكن تنفيذ العملية فيها، ووقع اتفاقنا على موقع وسط مدينة تـل أبيب (تل الربيع) يتجمع فيه أعداد كبيرة من سياسـيين ورجال

أعمال صهاينة وعليه انعقدت النية وبدأ التخطيط للقيام بالمهمة.

كانت خطّتنا أن يذهب للمهمة موسى ورائد؛ ويقوم رائد بوضع العبوة في مكانها بينما، ينتظره موسى في السيارة على مسافة من الموقع، ولهذا تم تدريب رائد مرات عدة على إدارة المفاتيح وللحق ـ لم يكن الأمر صعباً ـ.

وفي صبيحة يوم الجمعة ٢١/ ٣/ ١٩٩٧م خرج أربعتنا إلى أقرب منطقة حدودية (منطقة واد الدير) ـ وقبل لحظة الوداع ودون سابق تخطيط ـ طرأ تغيير على خطتنا. إذ توافقت نظراتي مع نظرات عبد الرحمن، فأوكلنا أمر العبوة لموسى وأمرنا رائد بالبقاء في السيارة، عندها جنّ جنون رائد، وثارت ثائرته. لكنه رأى الإصرار في عيوننا فالتزم وأطاع، وكانت الفرحة قد ارتسمت على وجهه الوضاء واتسعت ابتسامته حتى بانت نواجذه وكأن موسى قرأ الغيب وانكشفت له الحجب، فبدا مستعداً لهذا القرار، ولم يعلق على عملية التغيير إلا بهزّات قليلة بطيئة مثلها رأسه الملقى على ذراعه المحتضنة لمقود السيارة... ودّعناهم لحين اللقاء بعد الظهر عندي في البيت ووعدناهم بطنجرة مقلوبة بالعكوب البري احتفالاً بعملية الثأر لكل الأمهات الثكالى واليتامى والمشردين من أبناء شعبنا.

يا أم عبد القادر هذه خطتنا. ولكن ربَّ الأقدار كان قد أعد خطته منذ الأزل، وقضى أمره على عباده، وقد اختاره من بيننا بهذه العملية البطولية التي اهتزت لها الدنيا وأثلجت نيرانها قلوباً لطالما حرقتها قنابل الطائرات الصهيونية، وشوهت أرواحها رصاصات الغدر الغاصبة.

عملية اهتزت لها الأرض، وبدت ترقص طرباً، وتفتحت السماء لعروسها يزف إلى حورها متبوئاً مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أخذت نفساً عميقاً، ثم تنهدت ورأسها شامخ قد أسندته بكفها الطاهرة وعيونها نصف باسم والنصف الآخر باك، ثم قالت: لكنه عرف أنه شهيد أو سيستشهد قريباً.

ارتعدتُ واهتزّ جسدي وشعرت بحرارة مخالطة برودة سرَتْ في أضلعي، أطرقت قليلاً ثم قلت مستوضحاً: هل قلتِ شيئا يا أختاه؟

فأعادت قولها على مسمعي فتدبرت الحروف والكلمات ثم ماذا؟ كيف؟ من قال لكِ هذا؟ أم هو ما يسمى بالحدس أو الحاسة السادسة؟

قالت: لا.. هو قال.. وعيونه قالت هذا!

تصرفاته، حركاته، أنفاسه، كل شيء فيه كان يخبرني أنه راحل عما قريب.

قلت: حدثيني رحمك الله حدثيني.

قالت: قبل ثلاثة أيام من يوم العملية جمع الصغار من حوله وراح يلاعبهم ويداعبهم ويقبل كل شيء فيهم بشغف المحبّ، وحنان الأب الحاني، ثم ينظر إلى السماء مبتسماً كأنه يخاطب الشهداء في عليائها، وكأنهم يخبرونه بحالهم فيرى مقعده من الجنة.

فقلت له: أبا عبد القادر ليس من عادتك ما تصنع اليوم مع الأولاد وكأنك تراهم لأول مرة في حياتك.

نظر إليّ بابتسامته الندية ثم قال: يا رفيقة العمر، ويا صاحبتي في هذه الحياة المرء فينا لا يدري متى تحين ساعته، وهذه الدنيا دار عبور ولا أحد يدري متى يجتاز جسرها نحو الخلود الأبدي.

صحيح ما تقول ولكنك تكثر وتبالغ من هذا في هذه الأيام، ولا تكاد تفارقهم حتى تعود إليهم، هل هناك ما تخفيه عنّي؟

نظر إليّ ثم أشاح وجهه قائلاً: وهل تخشين عليّ؟ ضحكت وقلت: لا أخشى عليك الدنيا.

قال: تعالي اجلسي بالقرب مني، دنوت منه حتى احتضن ذراعه عنقي وقال: هؤلاء الأولاد أمانة عندكِ، احفظيها ولا تضيعيها، يحفظك الله ويبارك لكِ في دينك وعمرك.

أدركت عندها حقيقة أن هناك ما يخفيه عني، فعاجلته السؤال.. فألقى كفه على فمي ثم قال: لنا على فلان وفلان من الناس كذا وكذا، ولفلان علينا كذا وكذا، إن أصابني أمر الغيب فاقضي ما علينا لا تؤجليه وهذه وصيتي فيها كل ما تسألينه فتجيبك إن شاء الله، أودعتكم الله!

غشيتني قشعريرة وتاهت عيناي في رحاب البيت وضاقت نفسي قليلاً، ثم تمالكت نفسي وقلت: «وكلها لله يا رجل، وانسَ هذا الكلام»!

حاولت تجاهل الأمور وقلت: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، والله وحده الحافظ.

قال: وهو كذلك، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين!

والله كان يعلم أنه شهيد، وعلمنا أنه يودعنا إلى غير رجعة!

قلت مستغرباً: علمتِ هذا ولم تثنه عما بدا لكِ ولم تمنعيه رغم معاينتك الحقيقة التي كنا نجهل؟!

قالت: وكيف لي يا أبا تقي الدين أن أعترض أمر الله، أو هل أستطيع وقف اختيار الله عز وجل واصطفائه له؟!

وكيف لي أن أردّه عن الشهادة في سبيل الله وهي والله فخر الدنيا والآخرة؟

إذن يا أختاه: لم تطلبين مني أن أفعل ما عجزتِ عنه أنتِ وليس لي به علم وقد علمتِه؟

قالت: لا عليك، فكل ما أتمناه أن يجمعني الله به في جناته.

قلت إن شاء الله سيكون لكِ هذا بالإيمان والاحتساب وجهادك وصبرك في خلفه وسلفه.

أم عبد القادر اسمحي لي أن أزيدك من هذه الإشارات؛ والتي لم أفهم تفسيرها إلا بعد رحيله، وهي تصدّق ما قلتِه، بأنه يعرف بأنه سيكون شهيداً.

فعندما تم التغيير في الخطة، ووقع عليه التكليف بحمل العبوة؛ ووضعها في مكانها؛ قوبل هذا التغيير منه ببرودة أعصاب لم أعهدها فيه من قبل، وفرحته كانت غير مفسرة، فكل ما في الأمر أنّه سيضع العبوة بدلاً من رائد وليس في ذلك ميزة تذكر، فما كان في حساباتنا استشهاداً حتى نتسابق عليه، ومن ثم ذهابه إلى مسجد حسن بك في مدينة يافا وهي تبعد عن الموقع عدة كيلومترات، وصلاته هناك ركعتين أطال فيهما الدعاء والابتهال، ولعلهما كانتا

ركعتي الشهادة أدّاهما ورائد ينتظره في السيارة، وكان بالإمكان أن نصلي معه ما شاء لكن الله اختصه في هذا أيضاً وبعدما كان الاتفاق أنه في حال تعذّر الوصول إلى موقع التنفيذ يتم التأجيل إلى أجل غير معلوم، وقد تعذر وصولهما إلى هناك وبدلاً من التأجيل والعودة راح موسى يبحث عن موقع آخر فكان موقع «أفروفو» وسط مدينة تل أبيب الذي كان محطته الأخيرة في هذه الدنيا ومركز انطلاقته نحو السموات العلا، فارتقى شهيداً بعدما أذاق العدا كأس الحنظل التي سقوها شعبنا على مدار عقود مديدة من الزمن، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وجمعنا وإياهم على حوض المصطفى ﷺ، فهنيئاً لنا ولكم الشهادة أختاه، وها هي السنون تمضي نحو سكونها الأخير، وفيها أم عبد القادر بين فلذات كبدها الذين صاروا رجالاً، ترفض كل خاطب مؤثرة العيش في ظل الذكريات وتتلفع حلة الشهادة وتتقي بمظلتها كل غائلة من غوائل الدهر، وهي لم تتجاوز عقدها الثاني إلا قليلاً، فظلت تعيش كريمة طاهرة عفيفة صديقة مخلصة لثراه وذكراه، لتسجل صفحة خالدة من صفحات أرض الإسراء والمعراج المنقوشة بماء الذهب المزكّى بلون الدم ورائحته.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
تقريظ	٩
أعواد البرتقال	١١
امرأة على المحك	٤٦
جدار الموت	٥٨
شمس	٨٢
عيد ألعابه من حصى	٨٦
قلب الأم لا يكذب	٩٧
لماذا تركته يرحل؟	١٠٨
المحتويات	١٢١
السيرة الذاتية للمؤلف	١٢٢

السيرة الذاتية للمؤلف
جمال الهور

ولد سنة ١٩٧٠م في بلدة صوريف قضاء الخليل، ونشأ في عائلة محافظة. تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الشرعية للأيتام في الخليل، ودرس المرحلتين الإعدادية والثانوية في مدرسة قريته. التحق بصفوف الدعوة منذ نعومة أظفاره، وكان شاباً مميزاً من شباب المساجد، ومن القلائل الذين حملوا همّ الدعوة في قرية صوريف مع انطلاقة الحركة الإسلامية، ولم يتيسر له إكمال تعليمه الجامعي. تزوّج في عام ١٩٩٢م، وأنجب ولدين: تقي الدين وأحمد. ابتلي بالأسر المؤبّد، ولا يزال صابرًا محتسبًا.